زين الدّين

# أعواد ثِقَاب مُشتَعِلَة

رواية

# أعواد ثقاب مُشتعلة

زين الدين

**أعواد ثقاب مُشتعلة**

**المؤلف: زين الدين**

**مراجع لغوي:**

**تصميم الغلاف:**

**رقم الفسح: 56814620201230**

**رقم الإيداع: 3826/1442 فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية**

**الرقم الدولي المعياري (ردمك): 978-603-03-6074-1**

**الطبعة: الأولى/ يناير 2021**

**الناشر:**

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز النشر أو الطبع إلا بإذن المؤلف، ولا يجوز الاقتباس دون الاشارة للمصدر.

مبادرة كتاب وابتسامة محتاج

إذا وصل هذا الكتاب إلى يدك بطريقة غير
مشروعة، فتصدق بما تقدر عليه من ثمنه.

**هذه الرواية لا صلة بينها وبين الواقع، فالواقع أسوأ بكثير مما ترويه الحكايات. وأيّ تشابه في الأحداث والأسماء فهو من قبيل المُصادفة والاحتمالات.**

**أحيانًا؛ نبدو كالإلكترونات التي تدورفي مدارات محددة لها مُسبقًا.**

**إلى مَلَك، وكلّ شيء من أجلها.**

**إلى عابرسبيل؛ خضر.**

## -الفصل الأوّل-

خلال الحرب الكُبرى الثانية؛ كان «كيزستوف باڤو» قد تجاوز عتبة الثّلاثين ويعمل في المفاعل النووي الَّذي يقوم بتغذية البلوتونيوم إلى لوس ألاموس، ورغم سنِّه المُتواضع كان من المؤثرين في مشروع مانهاتن والّذي أنجب أوّل قنبلة نووية في العالم. ورغم الخدمات العلمية السرِّيّة والعلانية الّتي قدّمها باڤو إلى القنبلة النووية الأمريكية وفيما بعد الأسوأ والأقوى والأحقر؛ القنبلة الهيدروجينية[1] الأشد فتكًا ألف مرّة إلّا أن الشكّ في ولائه لم ينقطع، واحتجزته مرتين بشكل غير رسمي «لجنة التحقيق في النشاط المُعادي لأمريكا»، وأنقذه عقله. وفي يناير/كانون الثاني من عام 1951 احتجز بطريقة لا تليق فورعودته من زيارة عائلته في بولندا، نال توبيخًا شديدًا من المُحققين واكتسحوا كرامته لأنه التقى في وارسو صديق قديم تأكد لاحقًا عضويته في الحزب الشيوعي البولندي، لم يشفع له تاريخه المُستقيم، كانت أوّل نقطة سوداء في سجله الأمني، حاول ترميمها بأنّ اجتهد أكثر في أبحاثه السرِّيّة، مُجبرًا؛ لم يُكرر زيارة بولندا وأرسل لأمه تذكرة جوية إلى بلاد العمّ سام لكنّها رفضت، دخل في حالة اكتئاب وهدد بالانفصال عن وكالة الاستخبارات. في وارسو أقنع مجهولون الأمّ بالسفر إلى ابنها.

وفي ربيع العام 1954 أحتج باڤو رسميًا على رفض السُلطات منح «بول ديراك[2]» تأشيرة دخول إلى الأراضي الأمريكية، بسبب صداقة ديراك مع

---

[1] تعمل القنبلة الهيدروجينية بآلية معاكسة للقنبلة النووية، حيث تقوم على دمج الذرات الصغيرة. أمّا القنبلة النووية فتعتمد في قوة انفجارها على شطر ذرات كبيرة الحجم مثل ذرة البلوتونيوم وتحويلها إلى ذرات أصغر حجمًا.

[2] عالم فيزياء بجامعة كامبريدج، حصل على جائزة نوبل وشغل مقعد Lucasian للرياضيات والذي شغله ذات مرة إسحاق نيوتن.

العديد من العلماء السوفييّت. بعد الو اقعتين السابقتين، بدأ باڤو يُفكّر في شيء ما؛ برغم أنّه خدم الاستخبارات كعَالِم فيزياء له شأن، إلّا أنّ ضُباط الاستخبارات يحتكرون السُلطة المُطلقة، وفي النهاية من يملك السُلطة يفرض عقله على الجميع، وطوال حياته كان يحلم بدور أساسي في وقائع التاريخ.

وقبل رحيل «بروكلين دودجرز[3]» عن نيويورك، تحديدًا في الثاني من أكتوبر/تشرين الأول من عام 1956، كان باڤو مُسافرًا بالقِطَار السريع من نيوجيرسي إلى واشنطن، صعد القِطَار من مَحطّة ترينتون امتراك وفي يده حقيبة هامّة، ما بداخلها غايّة في الخطورة والسرِّيّة. وقفت أمامه العربة الثالثة فدخلها، كان فيمنّ ركبوا القِطَار رّجلين، أحدهما دخل العربة الثانية والآخر العربة الرابعة، بحيث زنقا عربة باڤو في الوسط، كلٌّ منهما مُسلح بمُسدس للطوارئ ومعه إذن بـ«القتل الاضطراري».

هناك سرّ مُقدس بين الفيزيائيّ ونافذة القِطَار، هو نفسه كان حائرًا فيه، كلّ شيء خلف النافذة المُتحركة يصبّ الأفكار في ذهنه بغزارة. ومرّات؛ ركب القِطَار فقط من أجل استحضار أرواح الأفكار. كان ممر المَقاعد يفصل بين باڤو وامرأة عينيها مختبئتان داخل رواية «أبي طويل الساقين»، والّتي صارت أكثر شهرة بعد أنّ جسدتها هوليود العام الماضي، كانت المرأة غائبة كأنما منقوعة في أحداث الرواية.

بعد قليل قَدِمَ الرّجل الأوّل من العربة الرابعة وجلس بجوار باڤو، يرتدي قبعة فيدورا بحواف واسعة ونظارة شمسية تُخفيان قدر المُمكن من الوجه، اهتز القِطَار، أمسك باڤو الحقيبة بكلتا يديه وبكل قوة. تحرك الرّجل الثاني

[3] فريق بيسبول في نيويورك، انتقل إلى لوس أنجلوس في عام 1957.

من العربة الثانية ناحية شريكه، يُخفي مُعظم وجهه بقبعة فيدورا. تلاقى وجهيهما عند مقعد باڤو، أومأ القادم برأسه إلى زميله الّذى بجوار باڤو، حينما تجاوز المَقعد أخرج آلة حادة من ملابسه، سريعًا؛ استدار و انحنى وضرب باڤو على رأسه من الخلف، لم تهتز يده، في ذات الوقت نزع الأوّل الحقيبة من يد باڤو، تمت السرقة بسرعة وبأقل ضوضاء مُمكنة. العربة شبه فارغة، وقليلون شاهدوا الجريمة، ولم يتدخل أحد. بهدوء ترك الرّجلين العربة فلم يكن لديهما الكثير من الوقت. أنزلت المرأة «أبي طويل الساقين»، أغلقتها وقامت خلف الرجلين. وضع الأوّل حقيبة باڤو داخل حقيبة أخرى متينة و أكبر، وأغلقها جيّدًا.

في مَوقع مُحدد على شاطئ سِكة القِطَار ينتظر رّجل قصير، يرتدي ملابس مُحددة، حينما أقبل القِطَار أخذ يرفع كلتا يديه في الهواء ويلوّح بهما بهمّة؛ تلك علامة الأمان، حاول الرّجل الأوّل القاء الحقيبة إليه لكنّ عامل النظافة منعه؛ قويّ وضخم ومن أصول أفريقية، سد الطريق على الحقيبة، وأغلق النافذة فتوقف الهواء البارد عن التدفق إلى داخل القِطَار.

كان الرّجل الاحتياطي يُر اقب من القِطَار، لم تُلقى الحقيبة إلى الرّجل المُحدد في تفاصيل الخُطّة الأولى، لم تسقط بعده بقليل، تابعه بعينيه، تجاوزه القِطَار، كان يبتعد وأوشك على الاختفاء. غير مسموح بالفشل، فعّل الخُطّة البديلة، ترك مقعد المُر اقبة و انضم إلى العَمَليّة.

في المكان المُتسع عند الباب كان الخاطفين متوترين ويتشاجران مع عامل النظافة، يتبادلون اللكمات. مرّ الرّجل الاحتياطي وخطف الحقيبة، حينئذٍ تحول إلى أساسي في اللعبة، ضرب العامل على رأسه بها، وأعطى فرصة للرّجل الثاني أن يُخرج آلته الحادة.

**

أصيب باڤو بحالة هيستيرية وفقد توازن عقله حينما أفاق ولم يجد الحقيبة، انهار تاريخه، في نفس الوقت مرت الحقيبة من أمامه، داخل حقيبة أخرى يحملها الرجل الاحتياطي عائدًا إلى مَقعده؛ خلف باڤو، وضع الحقيبة بجوار قدميه، وراقب باڤو ليُعدل الخُطّة وفقًا للتطورات. وإلى الآن لم تتجاوز العَمَليّة حدّ المخاطر المقبولة كي يتم تفعيل خُطّة الملاذ الأخير أو إيقاف العَمَليّة.

ترك الخاطفين عامل النظافة و افترقا كلٌّ ناحية حمّام بدل فيه ملابسه.

الرصيف القادم؛ رصيف مَحطّة فيلادلفيا شارع 30، أغلقت المرأة «أبي طويل الساقين» ووضعتها في حقيبتها. نزل باڤو و انتظر على الرصيف كان مُتأكدًا من نزول العصابة بالحقيبة هنا، بالتأكيد لم يستطيع أحد منهما القفز من القِطَار وهو يسير بسرعة عالية، بالفعل نزلت الخاطفين و اتجها مُسرعين ناحية باب الخروج، بينما نزل الرّجل الاحتياطي بالحقيبة و اتجه ناحية أخر الرصيف، وخلفه المرأة. التفت ناحية باڤو مرّات حتّى اصطدمت برجل، اعتذرت إليه دون أن تنظر في وجهه. ظل باڤو و اقفًا حتّى فارق القِطَار الرصيف.

اتصل باڤو من مكتب مُدير المَحطّة بضابط الاستخبارات الّذي يتولى أمره، حينما بدأت المُكالمة استأذن موظف المحطّة في مُغادرة الغرفة، بعد دقائق اتصل مرة أخرى، وجهه الهاتف نحو أقرب مَكتب للاستخبارات الأمريكية في المَدينة، حفظ العنوان ولم يدوّنه في ورقة.

وصل إليه بسيارة أجرة. فيلا صغيرة، بشارع هادئ، لا حُراس ولا قناصة فوق أسوارها، على بوابتها لافتة متوسطة؛ «شركة فاست للشحن»، وتحتها بخط أقل في الحجم؛ «لا نتعامل مع الأفراد». داخلها وجد محققين وكان المكتب ممتلئًا بالعُملاء السرّيّين المُتحمسين، فالأمر في غاية الخطورة. أُدخل قاعة، وأغلق الباب خلفه، في مُنتصفها منضدة تُشبه منضدة الطعام

المُستطيلة، حولها مقاعد؛ ثلاث منهم فقط شاغرة، أمام كلّ واحد أوراق وقلم، جلس باڤو أمام المقاعد الشاغرة المتجاورة، لم تكن القاعة مؤهلة لمثل هذا الحَدث، كان رنين الهواتف ودندنة الأحاديث الجانبية تتسلل عبر الجُدران، مبدئيًّا استحضر شجاعة الفرسان لسرد الأحداث منذ أن دخل القِطَار في دقيقتين، أتّهم بالكذب برغم النار الموقدة في أحشائه، كان ينظر إلى علم الولايات المتحدة الصغير في وسط المنضدة.

**

وصل نجم الاستخبارات اللامع؛ مايكل ماثيو. بعد الحرب الكبرى الثانية؛ كلَّفه «مكتب الخدمات الاستراتيجية[4]OSS» بالخدمة في محطّة الاستخبارات في مدينة ميونخ الألمانية؛ البيت رقم 5 شارع كونيفين. وحينما قسموا ألمانيا؛ عمل كضابط اتصال مع استخبارات ألمانيا الغربية؛ والّتي تُراقب الجماعات الشيوعية وما تبقى من النازيين، وكان مسئولًا عن ملفات جمهورية ألمانيا الديموقراطية (ألمانيا الشرقية) وتشيكوسلوفاكيا. وحينما أُستبدل «مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS» بـ «وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA» كان ماثيو على قائمة لجنة تَفكِيك OSS والمُنظمة لعمل ودستور الوكالة الجديدة. والآن يقود عمليّات مُطاردة ومُكافحة جواسيس السوفييت. واعتاد الفوز في معاركه الاستخباراتية، وقول إنّه انزلق من بطن أمّه ليكون ضابط استخبارات.

دخل القاعة وفي يده حقيبة من الجلد، نُظر إلى جسده الرياضي بخوف واعجاب، التقى باڤو لأوّل مرّة، تصافحا قبل العاصفة، طلب مُلخص سريع للكارثة والتطورات، اطمئن أنّه صدرت أوامر بإيقاف القِطَار، وطلب استنطاق سائقي سيارات الأجرة في فيلادلفيا في مواقعهم، سأل ببرود: «هل جندك صديقك الشيوعي في وارسو؟»، لم يرد باڤو، «ما فقدته هو ما يجعل

[4] وكالة الاستخبارات الأمريكية العاملة أثناء الحرب الكبري الثانية وحتّى عام 1947.

منّا ما نحنُ عليه؛ أقوى دولة في العالم»، صرخ فيه: «ربمّا تكون حقيبتك الآن في يد الاستخبارات السوفيتية»، أضاف: «كيف يُنقل شيء كهذا عن طريق القِطَار وكأننا جهاز استخبارات شارلي شابلن!»، بشراسة ضرب المنضدة بقبضة يده، وكرر الجملة الأخيرة، «لماذا تُسافر بتلك القنبلة، وكأنها دُمية؟»، لم يكن لدى باڤو جوابًا، قال أحد الجالسين لماثيو: «من فضلك اهدأ يا أستاذ»، وكان الأستاذ لقبه الاستخباراتي، سخر من باڤو قائلًا وسط رنين هاتف: «هل أنت مُعتاد على فقدان أشياء هامّة كهذه!»، كان باڤو مهزوزًا، مذهولًا، مُحطمًا، لم يكن يُجلد ويلقى تبجّح مثل نملة إلّا نادرًا، لم تنتهي المُكالمة الهاتفيّة إلّا حينما صرخ ماثيو طالبًا الهدوء، لم يُرى منزعجًا وغاضبًا هكذا.

لا يعلم باڤو أنّ ماثيو وراء استبعاد الفيزيائي العبقري «روبرت أوبنهايمر[5]» من هيئة الطاقة الذرية بسبب شُبهة التعاطف مع الشيوعية ومُعارضته للقنبلة الهيدروجينية. بالنسبة إليهم الفيزيائي مزوّد خدمة، لا يحق له الاعتراض وينال التوبيخ والسجن إنّ كانت الخدمة رديئة. وبالنسبة إلى ماثيو بالذات، العُلماء والفيزيائيون ما هم إلّا وسائل يستعملها العسكريون ورجال الاستخبارات لتطبيق رؤيتهم في العالم وكافَّة البشر، فلا شيء يجب أن يحدث إلّا ما تُريده أجهزة الاستخبارات، فهم مُلاك هذا العالم ومُديروه.

لم يكونوا يُدركون مدى خطورة انقلاب عقل عَالِم فِيزياء على ناموس الاستخبارات.

لم يتبقى في مَكتب الاستخبارات سوى أعضاء خلية المُتابعة والتحليل، توجه البقية صوب القِطَار في سيارات غير رسمية، يجب أنّ يكونوا هناك.

---

[5] أبو القنبلة النووية الأمريكية، والمدير العلمي لمشروع مانهاتن لتصنيع السلاح النووي، وكان ذلك أثناء الحرب الكبرى الثانية وبتكليف من الرئيس الأمريكي؛ فرانكلين روزفلت.

أُوقف القِطَار بعد ويلمنغتون؛ على أعتاب ديلاوير بارك لمده نصف ساعة. وصلت ظلمة اللّيل ومعها أكثر من مئة رّجل، صعدوا القِطَار كاللصوص، وزعوا أنفسهم على العربات. أغلق حُراس الأبواب بينما جرى تفتيش الرُكاب والحقائب والحمامات. دوّنوا أسماء الركاب وأماكن اقامتهم واستجوبوهم والتقطوا لهم صورًا فردية، بينما كان باڤو يُفتش الوجوه بحثًا عن الخاطفين. لدى اللصوص مناعة ضدّ الخطأ، تركوا خلفهم مَسرح العَمَليّة نظيف، لا أدلّة أو حتّى هفوة، فقط أحد الشهود أخبرهم بانضمام رّجل إلى الخاطفين.

رغم ميل الاستخبارات إلى استخدام أقل عدد من العُملاء في عمليّاتها إلا أن عامل الوقت والمساحة الشاسعة أجبرهم على التوسُّع واستدعاء أفراد البوليس والعملاء السرّيّين من كلّ المُدن القريبة، فكلما كان العدد أكبر؛ تعاظم احتمال العثورعلى الإبرة في كومة القش، لقنوهم مواصفات حقيبة باڤو وطُلب منهم احضار أيّة حقيبة و أيّة ورقة تقع أعينهم عليها على سكة القِطَار من نيوجيرسي إلى ديلاوير بارك دون مزيد من المعلومات، تمّ تفتيش مُتنزه ديلاوير بارك بالكشافات والكلاب البوليسية ومروحيتين، وتم تنقيب صناديق القمامة والطُرق الملاصقة للسكة الحديد وأغلق معظمها أمام المركبات والناس، وكان عدد هائل من سيارات البوليس و اقفة على جو انبها. في تلك اللّيلة دهس القِطَار ثلاث عُملاء، نُقلت الجثث إلى قاعدة عسكرية قريبة، ولم يتم اخطار البوليس، لم ينل أحد لحظة نوم حتّى كبار مسؤولي الاستخبارات، وظلت الغرفة رقم 304 في فندق «ستر افود بيللفو» فارغة، ولم يدخلها ماثيو.

**

قبل شروق الشمس؛ رُفض طلب ماثيو بمد بعض الإجراءات الاستثنائية ليوم واحد. وفي الصباح؛ فُتحت الطُرقات، كأن لا شيء حدث باللّيل. جلس

ماثيو مع باڤو حول طاولة صغيرة، مقعدين متجاورين، عرض ضابط الاستخبارات الأوراق المُشتبه فيها والّتي تمّ جمعها من الطُرقات وسكة القِطَار، أزاح الورق جانبًا وبدأ عرض صور الركاب، كان ماثيو صامتًا، يأمل أنّ يتعرف باڤو على اللصوص، وهو مالم يحدث. في واشنطن؛ يأسوا من العثور على الحقيبة، تمّ استدعاء الاثنين إلى اجتماع في البيت الأبيض، اجتهد ماثيو في جمع أكبر قدر من المعلومات حول الكارثة، وذلك عَتاده. طارا بمروحيّة تابعة لسلاح الجو، داخلها نمق باڤو أفكاره وحاول امساك أيّة أعذار، يقتله الخوف من المحاكمة بقوانين الاستخبارات الّتي تختلف عن القوانين العامّة، يُمكن إطلاق النار نحوه وذلك بعد شفط جميع الأسرار من دماغه، كره نفسه.

**

في حديقة البيت الأبيض ثُبت سُلّم عند باب المروحيّة وفُتح الباب، وقف الاثنين أسفل لفات المروحة الرئيسية للمروحيّة، أشار رّجل إلى ماثيو؛ أنّ تقدم، أمّا باڤو فاقتاده رّجل يرتدي بذلة رسمية إلى مَكان مجهول، كانوا مُتخبطين واستبعد في الكواليس النهائية، خافوا من حضور جاسوس مُحتمل للسوفييت اجتماعًا هامًّا في قاعة البيت الأبيض؛ يجلس فيه أعضاء مجلس الأمن القومي.

في الطريق إلى القاعة؛ التقى ماثيو مُديره، تبادلا سؤال وجواب فقط، سأل ماثيو: «هل الحقيقة كاملة ستكون بين يدي الرئيس؟»، أجاب مُدير الاستخبارات: «لا، ودع الأمر لي»، يرى الاثنين أنّ سادة البيت الأبيض (المؤقتون) لا يجب أنّ يعرفوا كلّ شيء، خصوصًا تجارب الأسلحة السرّيّة ومصادر المعلومات الاستخباراتية والجانب الأكثر ظُلمة في مشروع الاغتيالات السياسية في أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط. ونتيجة لهذه الرؤية خلال الستينات والسبعينات ستغرق وكالة الاستخبارات في فوضى

وفضائح، وأحيانًا أفلت العمل السرِّيّ من سيطرتها. مما سيدفع سادة البيت الأبيض إلى التدخل وفرض قيود على العَمليّات السرِّيّة الخطرة والاغتيالات الداخلية والخارجية.

**

طوال الاجتماع؛ كانت النقاشات ساخنة وماثيو يدوّن مُلاحظات، قال إنّ عنده شبه يقين بأنّ السوفييت وراء الواقعة وبرء الصينيين. وطالب الرئيس مُدير الاستخبارات بالإسراع في استرجاع الحقيبة؛ وكأنها محفظة نقود مفقودة، كما طلب تشديد الرقابة على باڤو والسفارة السوفيتية والدبلوماسيين المتورطين في أنشطة التّجسّس، وطالبه بوضع خُطّة تكاد لا تحمل أيّة مخاطر مع السوفييت، سأل: «ماذا لو عرف الشعب؟»، كان يرى ضرورة تأليف قصّة ترد بها الحكومة المحلية على تواجد كلّ هذا العدد من رجال البوليس الليلة الماضية من نيوجيرسي إلى ديلاوير بارك. رد مُدير الاستخبارات: «ومنّ سيخبر الشعب؟»، رد الرئيس: «الصحافة»، تدخل نائب الرئيس: «سيّدي الرئيس لو كانت الصحافة تقول كلّ شيء لكان الروس في حديقة البيت الأبيض الآن»، رأى منع الصحافة من نشر أيّ شيء وسيموت الحَدث في الأذهان خلال أيام.

طرح الرئيس سؤالًا عن الثلاث جنود الّذين قتلوا على سكة القِطَار، قال ماثيو إنّهم سينالون التكريم والنياشين الّتي يستحقونها، واستأذن الرئيس بالاتصال بذويهم وابلاغهم أنّهم قتلوا أثناء مُطاردة احدى عصابات نيويورك، وستُكرمهم الصحافة المحلية بمقالات مُكثفة وتتولى تلميع الأكذوبة وتهيأت النفوس لتقبلها وتصيرواقعًا، اقتنع الرئيس.

حان وقت توزيع الأدوار والمسؤوليات، حاول مُدير مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI اقتناص المَهمّة بأكملها، قال: «الاستخبارات المركزية صنعت الكارثة، وبالتالي لابد للحل أنّ يأتي من خارجها»، لعن مُدير الاستخبارات

المركزية باقو في نفسه، وظهر الصِراع الخفي المُعقد بين وكالة الأمن الداخلي ووكالة الأمن الخارجي (الاستخبارات الداخلية والاستخبارات الخارجية)، وهو الصراع الو اقع إلى اليوم في جميع دول العالم تقريبًا. في لحظة ما؛ أوقف الرئيس القتال بين مُديري الوكالتين وأَسنَدَ المَهمّة إلى وكالة الاستخبارات المركزية، والقيادة إلى ماثيو، اجتاح غضب مكتوم مُدير الاستخبارات. تعهد ماثيو شخصيًّا بتقديم تقرير يومي سرِّيّ عن الكارثة إلى الرئيس، بعد تلك الفقرة أضاف الشابّ؛ نائب الرئيس، إلى محضر الاجتماع السرِّيّ جملة: «طبقًا لجدول أعمال الرئيس»، وإنّ حدث تطور هام يُمكنه الاتصال في أيّ وقت وترتيب لِقاء وفق الأهمية.

**

خارج الاجتماع....

قال ماثيو إلى مُدير الاستخبارات المركزية: «سيدي، إنّك لن تقوم بكلّ شيء بنفسك، وفي كلّ حال سأظل أتلقى أوامري منك». أمّا وزير الحرب فاستغل المحنة للاغتيالات، أَرجَع الكارثة إلى سيطرة المدنيين المُنفلتين وغير المُنضبطين على وكالة الاستخبارات، وطالب الرئيس بتنفيذ رؤيته: «يجب أنّ تكون الاستخبارات تحت قيادة وسيطرة الجيش». ينظر العسكريون إلى الاستخبارات على أنّها وكالة مدنية، ومن غير المقبول أنّ يكون العسكري الفذ تحت قيادة مدني الاستخبارات. «الصراع على كعكة الاستخبارات» يدور فعليًا بين الرئيس والجيش، والرئيس الواعي يخطف الاستخبارات بأيّ طريقة، ويحول بين العسكريين ومكاتب الاستخبارات العُليا.

**

لم يذهب ماثيو إلى البيت؛ بدأ في الاتصالات لتكوين فريقه، اختار أسماء من النخبة. اهتم بالمُحقِّقين، أدرك؛ إنّ لم يكن باقو نفسه فشخص قريب منه متورط في المؤامرة، أو على الأقل شارك في جمع المعلومات، ومن شأن

مُحقِّقين أكفاء الوصول إليه، وجرّ خيوط القضيَّة. منح العَمَليّة اسم كودي: «شارع 30»، اقتبسه من اسم محطّة القطار الّتي نزل فيها باڤو و اتصل بالاستخبارات.

**

في اليوم التالي؛ عُثر على عميل سرّيّ مقتولًا بجانب سِكة القِطاَر، وارتفع ضحايا حقيبة باڤو إلى أربعة؛ ثلاثة دهسهم القِطَار وواحد ماتت معه مُلابسات قتله. وتم استدعاء رسّام، حفَّز ذاكرة عامل النظافة على استرجاع صور الثلاث رجال الّذين تشاجروا معه، وأصبح لهم وجوه تقريبية، في نفس الوقت كان الثلاثة في طريقهم إلى الحدود المكسيكية.

تجاوز ماثيو مُدير الاستخبارات ورفع أوّل تقرير إلى الرئيس مُباشرةً، وعرض خُطّة مُتقنة:

عن طريق عميل مزدوج يعمل لصالح الاستخبارات الأمريكية والسوفيتية معًا، يتم تمرير معلومة مؤكدة إلى السوفييت؛ حقيبة باڤو ما هي إلّا «معلومات مُسمَّمة» مُغلفة بغلاف عملي مُبهر، طرَّزه أكثر من خمسون عالمًا، والهَدف؛ تضليل وتعطيل مشروع القنبلة الهيدروجينية السوفييتي، و إيذاء العُلماء العاملين في المشروع.

«هل السوفييت بهذا الغباء؟»، قال الرئيس.

«لا سيدي، لكنّ ثقتهم في الأوراق ستهتز، وسيكلفون فريقًا بالبحث فيها، حتّى وإنّ أكَّد الفريق صحتها ستظل موضع شكّ. ومن خلال خبرتي في التعامل مع السوفييت، من المُمكن أنّ يلقوا بالأوراق في القُمامة من أجل الشكّ، فالسوفييت غارقون في نظريات المؤامرة.»

لم يُسمح لماثيو بالاطلاع على ملفات العُملاء المزدوجين السرّيّة[6]، لانتقاء أحدهم، قال مُدير الاستخبارات بتعالٍ: «لن أسمح لك بالاتصال مُباشرةً بأيّ عميل مزدوج. سأختار العميل المُناسب، وسأسمح لك بالاتصال بضابط الحالة[7]»، وأدار المقعد بعيدًا عن وجه ماثيو، فَهم الأخير لهجة الكلام. تأكيدًا لسُلطته صادر مُدير الاستخبارات بعض صلاحيات ماثيو، فمثلًا من غير المسموح لفريقه الجديد بالقتل أو الخطف إلّا بموافقة شخصية من أعلى رأس في الوكالة، وأُخرج مؤقتًا من لجنة للإنذار المُبكر[8] من أي هجوم سوفيتي.

في ذات اليوم؛ عَمِل فريق على تزوير الوثائق السرّيّة اللازمة لحبك الخُدعة، والّتي سيتم تسريبها إلى السوفييت بشكل عاجل.

**

منعت السُلطات الصحافة من النشر، لكنّ الاستعانة بعدد كبير من أفراد البوليس والعملاء السرّيين جعل وصول الخبر إلى الاستخبارات السوفيتية مُرجحًا، هذا إنّ لم تكن هي وراء واقعة السرقة. وإلى اليوم مازالت الواقعة من القصص البغيضة للاستخبارات الأمريكية.

**

---

[6] بالطبع لن يُسمح له بالاطلاع على كامل الملف، خصوصًا اسم العميل الحقيقي والمعلومات الأخرى الّتي قد تؤدي إلى كشف هوية العميل.

[7] الضابط الوسيط بين العميل وجهاز الاستخبارات.

[8] من المفترض تواجد هذه اللجنة في أي دولة تتعرض لتهديد من دولة أخرى أو عدّة دول. وظيفتها جمع التهديدات العسكرية وتقييمها وتوقع أي هجوم مُحتمل. واليوم؛ أُضيفت التهديدات الاقتصادية والالكترونية، وصارت ثلاث لجان مُتخصصة ومُنفصلة.

وقف «كيزستوف باڤو» أمام محكمة خاصّة سرّيّة، خلص مُحقِّقين ماثيو إلى أنّ يده ليست نظيفة تمامًا، لم يُستبعد من العمل بجامعة برنسيتون وذلك لأسباب تخص القضيَّة، لكنّ سُلبت منه الامتيازات الخاصّة وتراخيص الدّخول إلى الحظائر السرّيّة للاستخبارات، وطُرد من هيكل الشركات الخاصّة التي تُستخدم كغِطاء للعمل السرّيّ.

لم تعاني عَمليّة «شارع 30» من الاختناق؛ وفرة في المَعلومات تفوق طاقة المُحللين. وفي طفولتها وصباها؛ كانت المعلومات غير كافية، ولا تأتي الأيام بجديد.

اجتماعات المتابعة وَقعت داخل غرفة تختلف عن باقي الغرف في الكون، مُظلمة وجدرانها العازلة للصوت مدهونة بلون مُعتم ولا نوافذ لها، ومُحصنة بأجهزة للتشويش على أجهزة التنصت. وفي قضية كهذه يطل الشكّ الجميع؛ بدءًا من باڤو، وأمه؛ العجوز القادمة من وارسو، و أبنائه وزوجته؛ الأمريكية الأصل، مرورًا بالرّجل الّذي يقص شعره، فالاستخبارات وظيفتها الشكّ. أُعدت قائمتين؛ الأولى بأشخاص وضعوا داخل برنامج مُراقبة صارم، لا يعرف أحد متى ينتهي، والأخرى بأشخاص تم استجوابهم مُباشرة، بطريقة مُعقدة، بحيث لم يعرفوا لماذا تم استجوابهم، كانت الأسئلة مُشتتة ومتنوعة الموضوعات، ودُسّت الأسئلة المطلوبة في أسئلة أخرى، و انتزعت الإجابات من وسط الكلام. والفريقين نُبش ماضيهم وكُتبت تقارير عنهم. عرض الفانوس السحري صورًا إلى القائمتين، استمع ماثيو إلى مُلخص عن كلّ صورة، من بينهم «أمين عز الدين».

«أمين عز الدين» باحث بجامعة برنسيتون، نيو جيرسي، شاب عربيّ تجاوز بوابة الخامسة والعشرون، قليل الكلام إلّا في الفيزياء، ولحزنه تنبأ سكوت قلبه باكرًا ربما حتّى قبل تجاوز الأربعين.

***

## -الفصل الثاني-

**محطّة قِطارنيويورك المركزية، جراند سنترال.**

**يُفضل أمين تأمل جراند سنترال من ناحية شارع بارك أفينو، لم تكن ناطحة(MetLife) موجودة بعد، ذلك العملاق الزجاجي الّذي يحتضن المحَطّة من الخلف الآن، وقد صُمم لتشويهها، مكانه بدأ التخطيط لمبني (Pan Am).**

**حينما تأتي جراند سنترال من ناحية بارك أفينو، ترى أمامك بوضوح واجهتها الآسرة المطلة على شارع 42، لوحة فنية تحملها الأعمدة الأوزورية والّتي تحمل المعابد اليونانية القديمة، فوق واجهه المحَطّة، نحت ساحر مُستوحى من آلهة اليونانيين، تمثال ميكرسى إله السُرعة والسفر يظهر من خلفه جناحين لصقر ويضع قَدَمُه اليمنى فوق ساعة زجاجها الخارجي رائع الألوان، عن يمينه تمثال لهرقل ينظر إليه، وعن يساره تمثال إلى مينيرفا وهي تقرأ صحيفة وضعتها فوق ركبتها وتضع يدها اليسرى بجوار رأسها كأنها تُفكّر في شيء وتُمسك قلم في يدها الأخرى. لندع جانبًا معاني ذلك النحت الرائع فذاك يحتاج إلى مُجلدات.**

**دخل أمين إلى بهو المحَطّة، عقله يضجّ بالأفكار، نظر إلى أعلى، هُناك ثُرية ضخمة تتدلى من القُبة، مطلية بالصدأ وأنوارها خافتة، كانت المحَطّة تجلس على عرش الإهمال، مسكن لمن لا يجد بيت أو حضن أسرة، مُهددة بالهدم والاستبدال ببناية مكوّنة من ثمانين طابق، صممها معماري مشهور. بحث أمين عن كشك المعلومات، وقف بجوار الساعة الَّتي تُشير دائمًا إلى**

التاسعة وقليل مهما كان الوقت، ينتظر استاذه «كيزستوف باڤو»، وقلقًا من رؤيته. دخل باڤو من باب المحَطّة، أعلى رأس، طويل الساقين، وذراعيّه تتناسبان مع ساقيّه، في يده كتاب، غلافه غير واضح، ومثل المسئولين الحكوميين يرتدى بذلة رسمية وربطة عُنق مضغوطة جيّدًا ويحشر منديل أبيض في جيب البذلة الأعلى.

ألقى أمين السيجارة في مطفأة مليئة بأعقاب السجائر، تصافحا، قال باڤو: «أشكرك على الحضور إلى جراند سنترال من أجلي».

«ما الجديد في الفيزياء؟»، أضاف باڤو، ومن عادته أنّ يقولها. أخرج أمين من الحقيبة المسودة الأخيرة لورقة بحثية وناولها إلى أستاذه، دسَّ باڤو المسودة في الكتاب، برز الغلاف والعنوان، المؤمن الحقيقي[9].

أخذ باڤو تلميذه وسار به ناحية الدَرَج، تكلم بودّ، قال: «كنت أظن أنك لن تأتي».

«لماذا؟»

«يبدو أنّه لم تقع في يدك أيّة جريدة، أمس هجمت إسرائيل على مصر.»

توقّف عن الحركة.

قال باڤو لنفسه: «الجيش المصري أخلى سيناء، واليوم وجهت فرنسا وانجلترا إنذارًا إلى مصر وإسرائيل بوقف القتال خلال 48 ساعة، والانسحاب عَشر كيلومترات عن ضفتي قناة السويس، وإلّا نفذا الجيشان الإنجليزي والفرنسي بالقوّة». انتبه إلى عدم وجود أمين.

---

[9] من تأليف أريك هوفر، وينتمي لعلم النفس الاجتماعي، ونشر لأول مرة في عام 1951.

قال باڤو مُتعجبًا: «هل كنت تظن أنّ تأمين قناة السويس سيمر مرور القِطَار!»

قال أمين: «عبد الناصر كان يظن ذلك».

قال باڤو: «تحاول بريطانيا العودة إلى مُستعمراتها الّتي أُجبرت على اخلائها، لا تعود بجيش ولكنّ بشركات، تحميها بكلّ الطُرق، الاحتلال قادم يا أمين، على هيئة شركات، والشركة العالمية لقناة السويس أخر قدم لبريطانيا في مصر، وستحمي قدمها»، حاول التخفيف عن أمين: «خلال الحرب الكُبرى الثانية، كانت عائلتي في بولندا، وقد يئسوا من قدوم الجنود الأمريكان والإنجليز لنجدتهم، لم يكن أحد يعلم ما يحدث في لوس ألاموس، حتّى أعظم المسئولين في أمريكا، لكنّ العم جو كان يعلم.....»، ابتسم وهو يقول الكلمات الأخيرة، يقصد بالعم جو «جوزيف ستالين»، في إشارة إلى اختراق الجواسيس السوفييت المشروع النووي الأمريكي، أكمل: «لم يكن أحد يعلم أنّ مشروع مانهاتن على وشك وضع أوّل قنبلة نووية في العالم.....»، وصلا الدَرَج، هبطا ببطيء ناحية الطابق أسفل الأرضي، أكمل باڤو: «وذات يوم في الصيف الأخير في الحرب، تلقيتُ رسالة من أمي: مات أبيك في قصف أمريكي».

أسرع باڤو في تخطى الدَرَج، قال: «أسرعتُ كثيرًا في عملي، ولكن فات الآوان»، توقف وقال: «مات أبي في الحرب، أحب نظرية الأكوان المتوازية لأنها تؤكد أنّ أبي حيًّا الآن في كون آخر».

وصلا، كانا بعيدين عن الناس، قال أمين: «سيدي، هل تشعر بالندم لأجل المُشاركة في صُنع قنبلة نووية؟، خصوصًا بعد ما حدث لهوريشيما وناغازاكي؟»

قال باڤو وعليه علامات الحزن: «حزنتُ كثيرًا، لكن هذه هي الحروب، قتل ودمار»، أضاف: «يبدو جهلك بماهية الحرب؟، لقد قَدِمت من بلاد لم تُعاني من حرب عظيمة، الجميع يدخلون الحرب ملائكة، ثم تحولهم الحرب إلى شياطين، أمَّا من يدخلون الحرب شياطين فإنهم يصيرون قادة».

«العدو هي الحرب نفسها.»

خلع باڤو نظارته، وكان من عادته الاستخفاف بالنظارات والقول إنه يرى بدونها أفضل، قال: «الآن أرى حقيقة أخرى أفضل».

قال أمين: «الحرب الكبرى الثالثة وشيكة وقنابل الروس النووية على الأبواب، هلاك شجرة الحياة قد لا يأتي من السّماء.....»، كان باڤو يُنظف زجاج نظارته بمنديل قماش أبيض، فكَّر في نفسه؛ أيضًا القنابل تُلقى من السّماء.

قاطعه باڤو: «هناك خوف مرضي من القنابل النووية، رغم أنها الآن تحمينا وتحمى عالمنا من حرب عالمية ثالثة ومن المنفلتين، قديمًا كان القائد يُصدر أمر الحرب من مخبأ آمن، الآن في ظل القنابل النووية، يعلم ذاك القائد المجنون أنّه وأطفاله لن يكونوا آمنين إذا قامت الحرب، لذا ببساطة لن يصرخ في جنوده البُسطاء: اهجموا، اقتلوا»، ارتدى نظارته بينما كان يتكلم.

عندئذٍ مرا على باب صغير وقديم، نظر أمين إليه، لمّح باڤو أنه ربّما مَدخل السرداب المؤدى إلى متاهة، من يفوز فيها يدخل الطابق السرّيّ M42، وقد حاول أربعة جواسيس ألمان الوصول إليه وتدميره أثناء الحرب الكُبرى الثانية. مُغامرة لن يفوتها أمين.

أكمل باڤو: «أنا مثلك، أتمنى كون موازٍ بلا حروب، قتل، قنابل، روس، حِصار برلين، بلا حرب الهند الصينية (فيتنام). لكني أؤمن أنه في كل زمن وكل كون

هناك هتلر، ستالين، فيت كونغ[10]، هناك أشرار، لن ينجو أي كون من الدهس أسفل عجلات الحرب، ألمانيا المُقسمة بين الأقوياء موجودة في كلّ كون وزمن، ربما باسمها الحقيقي وربما بأسماء أخري».

سأل باڤو: «هل استمتعت بالمؤتمر؟»

«نعم استمتعتُ كثيرًا بكلمة العجوز ألبرت أينشتاين ومُحاضرة نيلز بور[11]، عن مُستقبل الأجسام الصغيرة»، أضاف أمين: «متي سيعود إلى كوبنهاغن؟»، يقصد نيلز بور.

رد باڤو: «ربما خلال اليومين القادمين سيعود إلى معهد الفيزياء النظرية[12]».

«سيدي، أريد أنّ تُرتب ليّ لقاء معه.»

سأل باڤو: «كم ستمكث في نيويورك؟»

«لا أطيق نيويورك، أحب تصفّح الطبيعة المُبهجة في برنسيتون، سأعود إليها في الصَباح.»

«انتظر يومًا آخر، التفاحة الكبيرة ملك لك عدا هارليم[13].»

---

[10] تعني باللغة الفيتنامية «الشيوعيين الفيتناميين» وهي مقاومة مُسلحة ناضلت ضد الاستعمار الفرنسي ثم العبث الأمريكي بجنوب فيتنام.

11 عالم فيزياء دنماركي مرموق حاصل على جائزة نوبل، وارتبط اسمه بميكانيكا الكمّ.

12 معهد بحثي تابع لجامعة كوبنهاغن، أسسه نيلز بور في العام 1920، ومنذ عام 1965 أصبح يُدعي «معهد نيلز بور».

13 التفاحة الكبيرة: نيويورك. هارليم: حي في نيويورك يسكنه أصحاب البشرة السوداء واشتهر بالسرقات والدعارة والجريمة والفقر.

توقف القِطَار، وضع باڤو يده فوق كتف أمين، قال بودّ: «أتمنى لك التوفيق». قبل أن يدخل القِطَار قال: «اتصل بي في هذا الرقم»، وأخرج ورقة صغيرة، ومن عادته تدوّين الأفكار السريعة والمُلاحظات في نوع مُميز من الورق، دوّن فيها رقم هاتف، أضاف: «اللّيلة، العاشرة مساءًا، في انتظار مُكالمتك». وجد لافتة تقول: «العربة مُخصصة لأصحاب البشرة السوداء»، الملوّنة colored، حسب لافتات التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة، هرول ناحية رأس القِطَار بحثًا عن عربة مُخصصة للرّجل الأبيض في المُقدمة. دخل القِطَار دون توديع أمين.

في طريق أمين إلى الباب الصغير والقديم، اصطدمت به سيدة، كأنها سكرانة، دسّت ورقة صغيرة في الجيب الخارجي لمعطفه الأسود الطويل، لم ينتبه أمين إليها.

وضع يده على الباب فظهر فرد من البوليس السرِّيّ ضخم كالمارد الَّذى يظهر عند دعك مِصباح علاء الدين، عضلاته مُفصّلة، لا يعرف أمين من أين أتى؟، إن كان هذا حقًا باب السرداب الذاهب إلى متاهة الطابق السرِّيّ M42 فإن أمين سيكون محظوظًا؛ لم يتعرض لإطلاق النار.

سأل أمين: «هل هذا الباب يؤدي إلى سرداب الطابق السرِّيّ؟»، شعر بعدها مُباشرةً بغبائه.

«هل جئت من أجله؟، ابتعد يا فتى وإلّا.....»

قاطعة أمين: «أنا أهوى فكّ الألغاز والتصوير».

قال رّجل البوليس بتعجب: «شرلوك هولمز[14]!»، أضاف: «أين كاميرتك؟، هل هي سرِّيّة؟، أجاسوس سوفيتي أنت!»، نظر رّجل البوليس ناحية جيب المِعطف، قال: «ما هذا»، ونزع الورقة من جيب المعطف الخارجي، لاحظ أمين أنها تُشبه الأوراق الصغيرة الّتي يدوّن فيها باڤو مُلاحظاته، لم يكن يتخيل ذلك مُطلقًا، ترسخ لديه أنّ باڤو من دسّها.

«لا أعرف عنها شيء، ربما وقعت في جيبي بالخطأ.»

اقتيد إلى نقطة البوليس في المَحطّة.

**

كانت الورقة في يد رّجل البوليس، مدوّن عليها طلاسم مثل الشيفرة الّتي يستخدمها الجواسيس، بينما حقيبة أمين في غرفة مجاورة؛ يتمّ تفتيشها بدقة حسب كلام رّجل البوليس.

«تسكن في نيوجيرسي؟»

رد أمين: «نعم»

«لماذا جئت إلى نيويورك؟»

«هل هذا تحقيق، يجب أنّ أنطق فيه؟»

«لا، لك الحرية، ولكنّ سأحتجزك إلى مساء الغد.»

«جئتُ في عمل.»

«و أين تُقيم؟»

---

[14] مُحقق خاص، أنشَأه الكاتب والطبيب الإسكتلاندي آرثر كونان، وُصف بآنّه المخبر الاستشاري الأول والوحيد في العالم، وتميّز بمهارات خاصة في فكّ ألغاز القضايا والجرائم.

لم يرد أمين

قال رّجل البوليس: «هل تُقيم في الشارع؟»

لم يكن بوسعه البقاء صامتًا، قال: «أنا فيزيائيّ، أقيم في فندق بلازا»، أخرج من جيب البنطال بطاقة الجامعة ومن جيب مِعطفه مُفتاح الغرفة؛ مربوط فيه شريحة من الصاج محفورٌعليها كلمة PLAZA، هداه تفكيره إلى قول إنّ طلاسم الورقة ما هي إلّا مُعادلات رياضية يستخدمها لنيل درجة الدكتوراه.

بحث رّجل البوليس في الدليل، رفع سَمَّاعة الهاتف و اتصل بفندق بلازا، لكنّ لم يرد أحد. في ذات الوقت؛ في غرفة مجاوركان خبيريمسك حقيبة أمين ويدسّ جهازتنصت بين طبقات القماش، عبارة عن لاقط، يلم الأصوات من حوله ويبثها على هيئة موجات لاسلكية؛ متوسطة أو اف ام، يلتقطها جهاز راديو في دائرة نصف قطرها يصل إلى ثلاثمائة متر. حينما أنهى عمله، استلم خياط الحقيبة وأعادها كما كانت.

***

ليلة مُعتدلة عكس الثلاث أيام الماضية، تساقط الثلج بكثافة ولم ينقطع، بدا أنّ شِتاء نيويورك حضر باكرًا شهر بأكمله. على مَهل كان أمين يقطع الطريق أمام مبنى فندق تريزا[15]، تقاطع شارعي 124 و125، في يده الإصدار المسائي من صحيفة نيويورك تايمز، اشتراها قبل مُغادرة جر اند سنترال، كان مشغولًا بالحرب في الشرق الأوسط، يشعر بالإحباط والبعد، فالمسافات تُقاس بالبعد أو القرب من الحبيب والوطن.

[15] فندق شهير في حي هارليم، نيويورك، شُيّد في العام 1912، ونزل فيه فيدل كاسترو، وتقابل فيه مع مالكوم إكس، والرئيس المصري؛ عبد الناصر، ورئيس الوزراء السوفيتي؛ خرتشوف، ورئيس وزراء يوغسلافيا؛ تيتو، ورئيس وزراء الهند؛ نهرو، وبدءًا من مُنتصف الستينات تحول الفندق إلى مَكاتب.

خلفه بمسافة عدم المُلاحظة سيارة أجرة، تابعة لشركة Parmelee، لونها أصفر عدا السقف ونصف الأبواب الأعلى وشريط ضيق حول السيارة فلونهم أخضر، يقودها رّجل أسمر طويل، قوى كالوحوش، عروقه حبال مشدودة، بجواره رّجل يرتدى قُبعة مُستديرة ومَعطف طويل إلى ركبتيه، غامض إلى حدٍ ما. أمام فندق تريزا يقف رجال ونِساء من أصحاب البشرة السوداء، معهم آلات موسيقية صاخبة ولافتات تسبّ الرّجل الأبيض. بموسيقى الجاز الرقص والغناء والتصّفير يُحيّون شُرفة صغيرة في الطابق الأخير، يملأها المُلاكم الأسود؛ «جو لويس»، يرتدي شورت أسود يظهر كاملا من شبكة الُشرفة الحديدية، ويديه داخل قُفازين. يتكرر هذا المَشهد كلما هزم لويس أبيضًا، سددّ إلى رأسه ومعدته لكمات مُتتالية، أوجعه وأسقطه بالضربة القاضية. أخذ يلوّح بالقفازين، بحماسة يضرب بكلتا يديه الهواء كأنه في مُباراة مُلاكمة مع رّجل أبيض. وفي الولايات المتحدة؛ حلبة المُصارعة المكان الوحيد الَّذي يلتقي فيه الأبيض مع الأسود بقوانين واحدة، لا تُميزّ بينهما، يقول تاريخ المُلاكمة: «الرّجل الأسود أقوى من الأبيض»، وفى الرقص يتلوّى ويُحركّ مؤخرته الرشيقة وكل عظمة بجسده.

شيء خطير؛ وجود رّجل أبيض في هارليم، وعند طرف هذا المَشهد العنصري بالذات، صرخ أحدهم: «أبيض هناك»، هرول أربع شباب ناحية أمين، أحدهم ثقيل، لو سقط فوق نسيج الزمكان، سيمزقه كما لو كان ثقبًا أسودًا. هنا شغل الخطر بال أمين.

«الشيطان الأبيض»، «القذر»، قالها وبثق في وجه أمين، سحب أحدهم السيجارة من بين أصبعيه، وداعب آخر وجهه بقسوة وركل ساقه، تألم وصرخ، رمى صحيفة نيويورك تايمز و انحنى على ساقه وأمسكها، صرخ فيهم: «لست أمريكيًّا، أنا أفريقي مثلكم، إلى هذا الحد لا تستطيعون التمييز!»، حاول استعطفاهم وتمنى انتهاء العرض المسرحيّ بعد بضع ركلات ولكمات.

بدأت مُشاجرة، هنا أضطر الغريب إلى مُغادرة سيّارة الأجرة والتدخل، فرض نفسه، دفع أمين بعيدًا وتكلم معهم بحذر شديد كيلا يستفزهم، لم يقل إنه بوليس سرِّيّ، فحي هارليم خارج نطاق سيطرة البوليس. معه مُسدس شخصي، لكنّ رجل أبيض يرفع سلاح في هارليم شيء يُثير سخط أصحاب البشرة السوداء وبالتأكيد سيُقتل. اقتربت سيّارة الأجرة، مال السائق وفتح باب المَقعد الخلفي. وضع الغريب أمين خلفه، دفعه بلطف ناحية السيّارة، فهم أمين، لم يدخل السيّارة. هناك سيّارة أجرة تقف قريبًا (Checker Taxicab) طراز(A8)، هرول ناحيتها، بغضب شديد ركل الرجل باب السيّارة الأولى فأغلقه، دخل أمين سيّارة (Checker Taxicab)، جلس بجوار السّائق، أغلق الباب فاطمئن، نظر في المقعد الخلفي، بحثًا عن أيّ شخص مُختبأ، كانت السيّارة فسيحة، هرول السّائق مُبتعدًا عن المَشهد، ظلت عيني أمين على الرّجل الغريب، استراح وجهه حينما تلاشى كل شيء.

لم ينتهي الأمر، نظر أمين في هوائي الراديو المرفوع أمامه فوق مُقدمة السيّارة وسأل نفسه: «لم أحدد إلى السائق وجهة، إلى أين يأخذني؟»

تأكد السائق أنّه لا شيء خلفه.

**

داخل فيلا آمنة التقى أمين برّجلين، ظن أنهما تابعين للاستخبارات الأمريكية لهذا هو مُراقب دائمًا؛ مشكوكٌ فيه. صب أحدهما ويسكي في كأسين، وكان يعلم أن أمين على فترات مُتباعدة يشرب ويسكي «هايج أند هايج Haig & Haig»؛ خمس نجوم. سلم أمين كأس وحينئذٍ انحنى الرّجل الأهم ناحية أمين، أصلع وقصير وله شارب، صرَّح بأنهما مسئولين في الاستخبارات السوفيتية؛ كي جي بي، وضع أمين كأس الويسكي على منضدة قُرب ذراعه الأيمن، استقر الكأس في مَكانه إلى نهاية اللقاء، ذُهل، أخرج يديه من جيوبه، ارتدى نظارته، قام بحقيبته وذهب بعيدًا، كأنما شعر بحر مفاجئ خلع

المِعطف وعلقه على المشجب ووضع الحقيبة بجوار احدى أرجل المشجب الثلاث. حلّ التوتر مَكان الصدمة، عاد وصرخ فيهم قبل أنّ يجلس: «هل أنتم مجانين!، أنا مُر اقب دائمًا من الاستخبارات الأمريكية، إنهم ير اقبون جميع الفيزيائيين، هذا اللقاء يضع السكين فوق رقبتي».

قال الثاني: «لهذا أعددنا اللقاء في نيويورك، بهذه الطريقة الغريبة».

قال الأوّل الأصلع: «أنت تعلم أن فرنسا وبريطانيا انضمتا إلى حرب السويس، والطائرات البريطانية والفرنسية أفزعت المُدن المَصرية؛ الإسكندرية، القاهرة، بورسعيد، السويس والاسماعيلية. إسر ائيل وبريطانيا وفرنسا وأمريكا هم أعداء العرب.»

لم يكن أمين مُرتاحًا في جلسته، يحني ظهره إلى الأمام، قال: «هل تعلم أنّ بلدكم أول دولة اعترفت بإسر ائيل؟»

«نعم، لكنهم لم يعودوا لنا أصدقاء.»

تكلم الثاني، البارد؛ دمه أثقل من مادة النجم النيتروني: «أيها الرفيق.....

قاطعه أمين: «لا تُنادي أيها الرفيق من فضلك».

قال الأصلع: «أنت تعلم أن الولايات المتحدة تفوق الاتحاد السوفيتي، وتفردها بقيادة العالم كارثة، أنت تعلم أيضًا كيف تعامل قادتها مع اليابان في الحرب الكُبرى الثانية، لم يكتفوا بإلقاء قنبلة واحدة على اليابان، مئات الآلاف قتلوا في هيروشيما ونجازاكي، ومازال مئات الآلاف يعانون من الإشعاع النووي حتّى اليوم. وليس لدى قادة الولايات المُتحدة أيّة مو انع في ضرب العالم بالقنابل النووية مرةً أخرى، وكما تعلم الرئيس أيزنهاور هدد باستخدام القنابل النووية لإنهاء الحرب الكورية».

سكت لحظة ثم أكمل: «أمين؛ هناك ملايين الأبرياء تستطيع انقاذهم، وجود الاتحاد السوفيتي قوة عظمى يضمن التوازن إلى العالم، نحن ندافع عن حقوق العمال الّذين طحنهم الرأسماليين، من أجل المزيد من العمُلات المعدنية. والاتحاد السوفيتي الوحيد الّذي يستطيع تقويم سلوك الولايات المُتحدة، هذا واجبه وواجبك تجاه العالم».

تسلم الثاني دفة الكلام سريعًا: «من أجل هذا الهدف النبيل، تعاون معنا آلاف العُلماء الأمريكان (يُبالغ)، ومازالوا يقدّمون خدماتهم إلى الاتحاد السوفيتي الّذي يضمن أمنهم وسلامتهم الشخصية، ويستطيعون فسخ التعاقد معنا وقتما يشاؤون».

لم يرتاح أمين لأيّ منهما.

عاد الأصلع: «عشرات العلماء ممن عملوا في مشروع مانهاتن كانوا ينقلون أسرار القنبلة النووية إلى الاتحاد السوفيتي.....

قاطعه أمين: «كيزستوف باڤو، هل يعمل معكم؟»

تجاهل السؤال، أكمل: «خدماتهم ساعدتنا في صنع قنبلة نووية سوفيتية وتجنب أنّ يذوق ملايين السوفييت طعم القنبلة النووية الأمريكية، حفظ هؤلاء العُلماء أرواح ملايين الأبرياء، ولن ينسى الاتحاد السوفيتي لهم ذلك، وكذلك التاريخ الّذي يحفظ فقط سيرة الأبطال مثلك يا أمين، فأنت تستحق الخلود في كُتب المدرسة».

أضاف بحماسة: «هل تُريد أنّ تُصبح بطلا؟»

سأل أمين: «ما المطلوب مني؟»

قال الثاني: «نحن نهتم بك وبفكرتك عن بو ابات الأكوان الأخرى».

عاد الأصلع: «أيضًا تنقل إلينا نشاطات كيزستوف باڤو، ومحاولة الوصول إلى أوراقه عن القنبلة الهيدروجينية»، كان يحوم حول الهدف الرئيسي.

أضاف الثاني: «وتمرير أي أبحاث تقع تحت يديك إلينا».

سأل أمين: «هل كيزستوف باڤو يعمل مَعكم؟»

رد الأصلع بثقة: «الجميع يعملون معنا».

صدّق الثاني على كلام زميله، وقال: «و أنت أيضًا يا أمين سيكون لك شأن عظيم معنا».

لم يتفقا على أي عوائد مالية، يتحتم عليهما أولًا إقناع أمين، وإن فشلا فالإغراء بالمال والنساء، وإن فشلا فالابتزاز.

ارتدي أمين معطفه، كلص خرج من باب خلفي للخدم والطوارئ، وبمحاذاة الرصيف كانت سيارة أجرة في انتظاره، تركها، نطق السائق اسمه متبوعًا بكلمة تفضل، لوّح أمين بالحقيبة وعنفه، أكمل الطريق عكس مُقدمة السيارة، وهذا الرد المبدئي. لكنّ الاستخبارات كالثقوب السوداء، لها «أفق حدث»؛ الشخص الذي يعبره لا يستطيع العودة أبدًا، وقد وقع أمين في «أفق حدث الاستخبارات السوفيتية».

الشارع مُظلم، صامت، وصوت أقدام أمين مسموعة، أما من خلفه فكان بلا صوت، كأنما روح بلا جسد، هكذا يجب أنّ تكون المُراقبة.

***

عاد إلى فندق بلازا، دخل من الباب الدوار الّذي يُفتح ويُغلق أوتوماتيكيًّا؛ اخترعه ثيوفيلوس لأنه يكره أن يفتح الأبواب للنساء. كان متأكدًا: شخصٌ ما

يجلس في ردهة الفندق في انتظار عودته، وسيّارة على بعد أمتار من مدخل الفندق في انتظار خروجه.

لم يكن يشعر بألفة مع الفندق، ولا يعرف كيف تُقضي الليالي الطويلة في الفنادق الفخمة. اعتاد المبيت في النُّزُل الرخيصة، وبلازا أحد أفخم فنادق نيويورك، لم يكن يُجيد تدبر أمور الحياة إن وَقع تغيير فيما اعتاد عليه. هناك شخص يسير في ممر الغرف، ربما اثنين أو ثلاثة، كأن أقدامهم تنقر فوق غِشاء أذنيّه، طُرق باب غرفته، كان قلبه يدق، نظر في ساعته، انتصف الليل، قام من فوق السَرِير، أغلق سلسلة الباب، مازال الو اقف يدق، تردَّد، افتح يا سمسم، فتح الباب بقدر ما تسمح السلسلة، ملأت امرأة كاملة الزينة مدى رؤيته، عرضت خدماتها، رفض وأغلق الباب، أشارت إلى شخص يقف قرب نهاية ممر الغُرف و أقبلت عليه، كانت فخ أو اختبار.

يعرف أمين إنّ أمر كهذا لا يقع في الفنادق الفخمة!

أخذ يُفكر كأنما ينقر على مزمار وينفخ في بيانو، تكلم في نفسه، والأفكار والألغاز تتزاحم في جمجمته:

«ما كنتُ لأساعد نظام ديكتاتوري في الاتحاد السوفيتي، الأمر لا يستحق التفكير، سأتجاهل الأمر، أعود إلى نيوجيرسي وكأن لا شيء وَقع في نيويورك»، «هل يعمل باڤو لصالح الاستخبارات السوفيتية؟، إن كان يعمل معهم فلماذا يريدون التّجسّس على أبحاثه وأور اقه؟، أمّ هم فقط ير اقبونه للتأكد من ولائه إليهم؟»

رَنَّ الهاتف، تخيل خبر سيء في الطريق إليه، ربما مصيدة أو مكيدة أو مطبّ جديدة من تأليف واخراج باڤو، تغلّب على التردد ورفع السَّمَّاعة، قال موظف الاستقبال: «مُكالمة إليك سيدي»، و أفسح الطريق إلى صوت باڤو.

«لماذا لم تتصل بي؟»

«نسيت، كان يومًا طويلًا ومُكدسًا بالأحداث»، أضاف أمين في سِرّه: «الأحداث المصيرية». بشره باقو بأن البروفيسور نيلز بورو افق على المُقابلة وقد حدد موعدًا، الساعة التاسعة صباح الغد بتوقيت المَدينة، أعاد عليه: «التاسعة صباح الغد؟»

**

قضى نصف اللّيل فوق السَرِير، يدون خِطاب إلى والده ثم أخذ يُرتب أفكاره وفلسفته، ويبني عوالم متوازية ستقع في الغد.

لم يُسمح له بدراسة الفيزياء النووية، وحسب ما قيل له: «ستجلب إليك المتاعب، ونحنُ لا نُريد لك ذلك». وبدلًا منها اجتهد في استخدام الأجسام دون الذرية (الأصغر من الذرة) للعثور على بوابات لأكوان متوازية مُتفرعة من كوننا، فطبقًا لفرضية مُثيرة فجرها زميله هيو إيفيرت منذ أعوام، فرضية هزت الفيزياء والواقع، وسطع نجمها سريعًا مثل دمية شيرلي الَّتي بجوار أوراقه الآن وترتدي فُستان الطفلة المعجزة؛ «شيرلي تيمبل» في فيلم «سوزانا الجبلية».

الأكوان المتوازية؛ افترض إيفيرت أنّ كوننا ليس الوحيد، هُناك وراء قوس قزح أكوان غائبة عن إدراكنا، أكوان مُتفرعة من كوننا، وكوننا مُتفرع من أكوان أخرى، وكلّ لحظة تنشق عن كوننا أكوان جديدة وحَيَوات، كلّ كون يُمثل احتمالًا مُمكنًا. لنفترض أنك استيقظت في السادسة صباحًا، أطفأت المُنبه المُزعج، أقسمت ألا تذهب إلى العمل ورجعت إلى الأحلام مرةً ثانية، في ذات الوقت انشق عن كوننا كون أخر ذهبت فيه إلى العمل، وعدت عند المساء. وحينما توجّه سائق الحافلة إلى القسم الملوّن وطلب من صاحبة البشرة السوداء؛ «روزا باركس» التخلي عن مَقعدها لصالح راكب أبيض لا يجد مكانًا في قسم أصحاب البشرة البيضاء، بزغ كون آخر تخلت فيه عن

حقوقها ومقعدها واستمرت التفرقة العنصرية في الحافلات والجامعات، وهكذا.

وإذا حدث والتقى شخصٌ ما بنسخته المُضادة في كون أخر، فإن واحدًا سيقتل (يُزيل) الآخر ضمن انفجار، تمامًا مثل لقاء الإلكترون مع ضده البوزيترون. لكن هل يستطيع أحدنا التواجد في عدّة أماكن (أكوان) في وقتٍ واحد؟، نعم. أجسادنا وكل شيء حولنا مكوّن من جُسيمات صغيرة جدًا تُدعى «الذرات»، تُخبرنا الحقيقة ونظرية الكمّ أن تِلك الجُسيمات تستطيع التواجد في عدّة أماكن في آنٍ واحد، بل والجُسيم قد يصطدم بنفسه!!

جيّد، أنا لا أحب أن أكون وحيدًا.

طرح أمين فكرة «بوابات الأكوان المتوازية» على باقو والّذي تحمس وقال: «سيكون عمل شُجاع». وفيها طالما أنّ الاجسام دون الذرية والإلكترونات خاصّة، تستطيع التنقل بين الأكوان المتوازية، إذن فإنها تحمل معلومات عنها، ويُمكننا انتزاع تلك المعلومات بأي طريقة حتّى ولو تحت التعذيب، أو بلغة العلم مُراقبة سلوكها ودراستها بعمق شديد.

***

استيقظ أمين أبكر من المُعتاد. في مطعم الفندق؛ تناول الشاي مع الكعك الإنجليزي اليهودي المفرغ من المُنتصف، لم يميل جوفه إلى الفِطار الأمريكي. قرأ الجرائد، كانت الأخبار الرئيسية: القوات البريطانية والفرنسية تُهاجمان مصر، وطائرات تطوف سّماء القاهرة والإسكندرية وبورسعيد وتُلقي القنابل.

بدأ يُفكر، في 29 أكتوبر/تشرين الأول تُهاجم إسرائيل سيناء، وفي اليوم التالي بريطانيا وفرنسا توجهان انذارًا إلى مصر وفي اليوم التالي تنضمان إلى الحرب ضد مصر، إنها مؤامرة.

قفز داخل سيارة أجرة.

دخل الفندق الّذي يُقيم فيه نيلز بور، مُتحمسًا ورأسه تعج بالأفكار وتُحلق في أكوان أخرى، وصل في الموعد. أخيرًا التقى العجوز ذو الحاجبين الكثيفين، والعينين النافذتين كالميكروسكوب، ملابسه عادية لا توحى برتبة رَفيعة في عالم الكمّ. متواضع؛ كما وصفه أينشتاين: «بور، هو الأكثر لطفًا وتواضعًا بين الجميع، وحينما يطرح أفكاره فإنه يُقدّمها بلسان الباحث عن الحقيقة لا من يمتلكها».

في البداية قال بور: «ليس كل ما أقوله نقد، بل مُجرد أسئلة، وكن مُستعدًا للمفاجآت الصادمة»، بعد تقديم الشاي مُباشرة انطلقت مُناقشة ساخنة تقتات على دخان السجائر، مُطاردة فلسفية وفزيائية مُثيرة، فالفلسفة أُمّ العلوم. ورط أمين نفسه حينما انتقد تفسير كوبنهاغن، رأى التعجب على الوجوه، كأنما تقول: «من تكون حتّى لا ترضى عن شيء وضعه الثلاثي؛ بور وهايزنبرج وبورن!»

قال: «سيّدي هل تفسير كوبنهاغن كلمة الله كالإنجيل؟»

رد بور سريعًا: «أيضًا الأكوان المتوازية ليست كلام الله».

يبدو أن بور لم يقنع بفلسفة أمين، وسابقًا لم يُكلف نفسه عناء التدقيق في هرطقة الأكوان المُتوازية. قال: «الفِكرة صَعبة القبول في الو اقع».

قال أمين بحماسة: «لقد أثبتُ كل شيء بالمعادلات الرياضية فقط، لكنّ يا سيدي عن طريق التفاضل والتكامل تنبأ نيوتن بمسار القمر ومُذنب هالي والكواكب، واخترعت المعادلات الرياضية كوكب نبتون قبل أن يرصده تلسكوب غوتفريد في برلين ليلة 24 سبتمبر/أيلول من عام 1846».

قال نيلز بور: «هل تؤمن بانقسام الناس في الو اقع مع كلّ حَدث، ذلك لن يلقى شعبية بين العلماء».

رد أمين: «سيدي، قال كارل شوارزشيلد إنه يعتقد أنّ الحل النظري لـ "متفردات شوارزشيلد"[16] ليس له معنى جسديًا[17]، ورفضها أينشتاين أيضًا. وفيما بعد استطاع روبرت أوبنهايمر وطالبته هارتلاند سنايدر ايضاح كيف تتشكل وذلك باستخدام النظرية النسبية العامة لآينشتاين، والآن؛ لا أحد يشكّ في وجودها. حتّى ميكانيكا الكمّ نفسها لم تكن تلقى شعبية بين العُلماء، خصوصًا أينشتاين وإلى اليوم مازال يُعارضها، وأمامه قلت: القمر يختفي حينما لا ننظر إليه، وطلبت منا الإيمان بهذا». كان أمين عنيدًا وأضاف: «فِكرة وجود أكوان متوازية حولنا أكثر عقلانية وقبولًا من قولك إنّ القمر غير موجود إلّا داخل عقولنا». حينها أطلق نيلز بور الصفّارة و أنهى اللقاء.

أغلق أمين الباب خلفه بقوة، لم يقل كل ما لديه، سار في الممر الطويل وليس معه أحد، مُحبطًا، قال في نفسه: «العجوز الّذي يعيش في بيت شركة البيرة!». كان معروفًا؛ منذ أوائل الثلاثينات انتقل نيلز بور للعيش في بيت شّرفي تابع لشركة بيرة وحصل على منحة بيرة مجانية طوال حياته.

فكّر في فتح سلسلة مطاعم والتفرّغ لها، تمنى أنّ ذلك اللقاء لم يكن. كان مؤمنًا أنّ نيويورك خطر عليه ويصفها: «داروينية المذهب، فيها الانسان آلة، والآلة تحل محل الانسان»، قرر العودة إلى نيوجيرسي، وبالقُرب من الطبيعة الخصبة تعود الحياة إلى طبيعتها المُعتادة. في الطريق إلى مَحطّة القِطَار أوقف سيّارة الأجرة، نزل واشترى الطوابع البريدية ولصقها على الظَّرف، فوق العنوان: «أحمد عز الدين-مخيم عين الحلوة-صيدا-لبنان».

---

[16] سماها لاحقًا الفيزيائيّ جون ويلر «الثقوب السوداء»، وذلك أثناء محاضرة عام 1967، وقد لاقى الاسم حظًا وشهرة.

[17] المقصود ليس لها وجود في الحقيقة.

وضع الخطاب في فم صندوق البريد.

***

## -الفصل الثالث-

العظيم أبي،

لا أدري لماذا منذ عدّة أيام، كلما أضع رأسي فوق الوسادة كي أستريح، أسأل نفسي: «ماذا قدّمت لي الرياضيات، الفيزياء؟»، برغم أني قرأتُ آلاف الكُتب العلمية (دون مُبالغة) إلّا أن التعاسة لا تتخلى عني، من المُفترض أنّ تمنحني الكتب والعلم شعورًا دائمًا بالسعادة، لكنّ كلّ شيء كان مؤقتًا.

لازلتُ أستطيع إعادة الماضي، أمّي الّتي تركناها خلفنا حتّى دون أنّ ندفنها، الليالي الطوال، «أعواد الثقاب المُشتعلة» فوق رؤوسنا، البيت الخالي بجوار المَسجد، و أنت لا تأتي، أوّل يوم في المدرسة، أوّل كتاب قرأته، الآن كبرتُ يا أبي، لم أصبح سكيّزًا (في بعض الأوقات!)، ورثتُ الاكتئاب (في بعض الأوقات!). لسنوات قرأت في الرياضيات والفيزياء، أصبحتُ مشغولًا، ركبتُ القِطَار والطائرة وفهمتُ النسبية؛ العامة والخاصّة، وطاردتني قوانين الجاذبية، قرأت كثيرًا عن عوالم الكمّ الغريبة والمُخيفة، عرفتُ يا أبي أنّ الواقع وهم والحقيقة اختياربين أكوان متوازية، والإلكترون حرٌ و أنا عبد، الإلكترون التافه هذا يُسافر بين الأكوان بسرعة أعلى من سرعة الضوء، قرأتُ وقرأتُ وقرأت، ودائمًا أتذكرك و أنت تقرأ الخطابات لأهل قريتنا.

الطفل الصغيرالذي أخذته من يده إلى المكتبة، وحدثته عن «أعواد الثقاب المُشتعلة»، كبروقرأ كثيرًا، لماذا أخذتني إلى المكتبة؟، من أجل العبقرية، وهل نحتاج العبقريّة وحدها في الحياة؟، ماذا لو لم تفعل؟، هذا السؤال يُلاحقني، هل كنتُ سأكون تاجرًا ناجحًا، عامل نظافة سعيد؟، لماذا اخترت لي مُستقبلي؟، ما ذنبي؟، لماذا أدفع ثمن خطيئتك؟

لكني أظن أني كنتُ سأختارنفس الطريق، نفس المسارالخاطئ.

ايماني أن المعمل والقراءة سيمنحانني مكانًا أفضل ونهايات سعيدة جعلني لا أتوقف، كما أن جريمة العلم دومًا مُمتعة، تستهلك وقتي كاملًا، فأنا لا أعرف غيرها. تعلمتُ الحياة من الكتب العلمية، أشفق على نفسي؛ كان عليّ أن أمارسها ولا أخفيها خلف جدران الورق الثخينة، كيف أتعلم الحياة من التفاضل والتكامل وقوانين نيوتن والنظرية النسبية؟، كان عليّ اقامة صداقات حقيقية.

قرأت كثيرًا وأصبحتُ تعسيًا يا أبي، تعيسًا جدًا، ليتني لم أفعل؛ ليتني قرأت روايات ومسرحيات ودخلتُ المسارح والسينما.

هل أقوم الآن وأحرق كل هذه الكتب؟، ولو فعلتُ ذلك، هل سأتعافى؟، كيف سيعود ذهني نقيّ ونظيف!!، لقد تلوث عقلي بالكتب والرياضيات والفيزياء والعلم.

أرسل ليّ صورة حَديثة ليوسف.

ابنك غير المُخلص، أمين عز الدين

نيوجيرسي.

***

الفيزياء تعرف كل شيء، وكذلك الاستخبارات.

منذ شهرين؛ ترك أمين سكن الضيافة الجامعي لشعوره بأنّه مُراقب ومُطارد، واستأجر شَقّة مُتواضعة. الثانية صباحًا، صامتًا في الغرفة الوحيدة كأنه قطعة أثاث، يُدخن السجائر بجوار عُدّة هاتف، خافضًا رأسه، يجلس أمام نافذة مَفتوحة وكاميرا مخفيّة على عامود الهاتف. ورغم ذلك لم يرفع رأسه لرؤية ما تستطيع العين المُجردة الاتيان به إلى العقل، ستة آلاف نجم بديع؛ يجمعهم ظلامٌ دامس، يُحدق عبر نظارة في الورق أمامه، يدوّن

ويُدخن دون توقّف ويتجاهل دمية شيرلي، يُترجم أزقة الفيزياء إلى طلاسم رياضية فقد بدأ حياته بالرياضيات وأخذ ينحرف تدريجيًا حتّى أصبح فيزيائيّ طبقًا لقدره ووصية أستاذه باڤو، رغم مُتعة الغوص في المُعادلات الرياضية واغراء رشاقتها إلا أنه وَجد نفسه في الفيزياء، فكما قال رذرفورد: «العِلم إمّا فيزياء أو جمع طوابع».

هز الهواء النقي والمُنعش القادم من النافذة أوراق أمين، لكنّ لماذا افترض إيفيرت وجود أكوان متوازية ونسخ غير مُنتهية منا؟

كانت حياة إيفيرت مُفككة، يُعاني من الاكتئاب، انفصل والديه، واضطر للعيش مع والده، لذا (توهّم) وجود نسخ منه في أكوان أخرى غير مرئية لنا، بينهم نسخة سعيدة، لا تُعاني من الاكتئاب، تؤمن بوجود الرب، وتعيش حياة كان يُريدها. أمّا إن كنت فزيائيًا فسيكون السبب مُختلف، سيكون قِطّة وَديعة، ليس لها وجود!!

في عام 1926 كان الشاب النمساوي شرودنجر غاضبًا من غرابة تصرفات الإلكترونات و إفلاتها من سجن المنطق وهزيمتها قوانين الفيزياء، افترض تجربة ذهنية ساخرة، بطلتها قِطّة، حية وميتة في آنٍ واحد!!

تبدأ التجربة بصندوق، داخله ذرة مُشعة وعداد غايغر مُتصل بقارورة سم، نضع قِطّة وديعة داخل الصندوق ونُغلقه، إذا تحللت الذرة فإنّ العداد سيُطلق السم وتموت القِطّة، وإذا لم تتحل الذرة فإنّ القِطّة ستظل حيّة. حسب فيزياء الكمّ تشغل الذرة الحالتين، مُتحللة وغير مُتحللة، ولذا تكون القِطّة حية وميتة في آنٍ واحد طالما الصندوق مُغلق. وحينما نفتح الصندوق ونرصد فإننا نؤثر على القِطّة ونُجبرها على اعتناق احدى الحالتين، أي أنّه لا يوجد واقع إلا إذا رصدناه!!

أخذ الهاتف يرنّ بقوة، على الناحية الأخرى باڤو، أستاذ أمين والمُشرف على اطروحته لنيل درجة الدكتوراه، ظريف ونشيط، ويكتب على السبورة السوداء كالمُهرج، ويستحق أن تُناديه يا سيدي. يقوم بدور مرسوم في خُطّة؛ حتّى في تلك الساعة المُتأخرة!

كان أمين مُلتحمًا مع المُعادلات الرياضية وتجاهل دوي رَنين الهاتف ثلاث مرّات، أغلق باڤو الخط دون أنّ يضع السَّمَّاعة مَكانها، لفّ قُرص الأرقام ثلاث مرات وقال جُملة واحدة: «إنّه خارج الشَقّة».

لكن كيف تكون قِطّة شرودنجر في حالة مُركبة، حية وميتة في آنٍ واحد؟

حسب تفسير الأكوان المتوازية حينما نقوم بفتح الصندوق فإن الدالة الموجية لا تنهار وتأخذ احتمالًا واحدًا، بل ما يحدث أنّه في لحظة الرصد بالضبط ينفلق الكون إلى كونين -حسب عدد الاحتمالات، القِطّة حية في كون وميتة في الآخر، و إننا نرصد كون واحد فقط، بينما يسبح الأخر مُبتعدًا.

كان تفسيرًا مُبهرًا وصادمًا.

ليس بعيدًا، هناك رجال يستعدون لاقتحام شَقّة أمين.

**

في تلك اللّيلة كانت المُعادلات الرياضية أقوى من النوم وسُلطانه، أخيرًا وقعت عينيّ أمين على نجوم خارج النافذة، فكّر: الآن هناك أجرام سّماوية تدور حول الشمس على مسافات مُتفاوتة، فكلّ شيء خُلق ليتحرك حتّى الإلكترونات الدقيقة، لذا قرر طاعة ناموس السّماء وتقليد النظام الشمسي، فكل منّ عصى السّماء هَلك.

اتفق الرجال أسفل البناية على كل شيء بينما كان أمين يرتدي ملابس الخروج. على درج السلّم قابل رّجل الاستطلاع؛ مُتجهًا إلى أعلى، سأل أمين

نفسه: «غريب في هذا الوقت من الليل»، سأله: «إلى أين؟»، التفت رّجل الاستطلاع إليه وقال: «لقد استأجرتُ شَقّة في الطابق الثالث»، صعد عدة درجات و انتظر، ر اقب أمين من الكُوّة بين شقيّ السلّم، وحينما تأكد من مُغادرة أمين البناية صعد إلى السطح وأعطى إشارة إلى زملائه الو اقفون في الشارع، بينما كان أمين يبتعد.

المشي غوص وراء لؤلؤ الأفكار، و أكثر الأوقات عُمقًا. وأغلب الأفكار العظيمة و أكثرها نفعًا تعثر بها أثناء قداس المشي. دومًا يتبع نظرية الكمّ أثناء تجواله في شوارع نيوجيرسي، حيث يخضع كل شيء للاحتمالات ومبدأ اللايقين، وتتقاسم الطرقات احتمالات متساوية، يقول عن ذلك: «إلى حيثما أريد، لا حيثما تُريد ليّ الحياة».

أفاق من سُكر التفكير عند صورة فتاة جميلة على هيئة لافتة فسيحة، مدوّن على الفستان اسمها «سارة كريستوفر» وتاريخ وموعد حفل توقيع رو ايتها الأولى «طائرة ورقية لطرد الأشباح» والّذي يُصادف الليلة في مسرح نوتلي لتل، فكَّر أنه في بلدة نوتلي.

وسوست له نفسه: «جميلة جدًا، يجب أن تذهب»، هذا ما دفع أمين إلى حضور الحفلة، فالجمال قوة تُجبرنا على الخضوع لنفوذها، لغة يفهمها الجميع وتلزمنا بالإنصات إليها، ومهما اختلف الشعراء في وصف الجمال، يبقى الوجه بابه ومدخله، وبرغم ذلك يظل جمال الوجه جملة ناقصة تحتاج ما يُكملها.

أوقف سيّارة أجرة.

في مدخل المَسرح يقف طفلان توأمان يستقبلان كل ضيف بوردة ونسخة من الرو اية وبطاقة تعارف، خلفهما نسخة تؤام للوحة الشارع، ذلك من ترتيب «مؤسسة بوك النشر» المغمورة.

دخل بعد تدشّين الحفل بدقائق، انتبه الحاضرون إلى طرقعة حذائه المُقزِّزة، شقّ طريقه بين المقاعد، جلس بجوار سيده لم ترد التحيّة، هناك عشرات الفساتين الملوّنة موزعة على مقاعد مكسوة بقطيفة حمراء، فأغلب المشاهدين من الشابّات الساذجات اللاتي يؤمن بخديعة الحُبّ في الروايات الرومانسية. وضع الرواية مقلوبة فوق ركبتيه، أمامه المنصّة مُزينة بالورد، كانت سارة تقف يسار المنصّة الضيقة، الضوء مُسلط عليها، وخلفها ظلّها على الحائط، أنيقة كدوقة كامبريدج، ترتدى فستان وَرديّ، وعلى صدرها عِقد عبارة عن ثلاثة أدوار من اللولي الصناعي الأبيض، وفي معصمها ساعة رقيقة، عن يسارها مقعد من الجلد الأسود؛ أمامه منضدة صغيرة في مركزها باقة ورد، يليهما النُقاد؛ ثلاثة، كلٌ منهم يُثبت وردة أعلى موقع منديل البذلة؛ فوق الياقة، وأمام الأخير سلّم المنصّة؛ ثلاث درجات فقط.

قرأتْ فقرة من روايتها بحماسة لص يرأس نقابة:

»

*قُرب غروب الشمس، صعدتُ قمّة الجبل، ثبتُ خيط طائرتنا الورقية، وأطلقتُ سراحها، تأملتُ السّماء الصافية والمَدينة في الأسفل، القرميد الأحمر البندقي فوق أسطح بيوت قصيرة، لونها أبيض، والغابة كثيفة الأشجار، أبصرتُ أنوار ممشى ساحل البحر، وضوء مصباح منارة المدينة، والتلفريك الرابط بين مركز المدينة وقمّة الجبل، والبُحيرة في الأقصى. أتذكرك حينما قُلت: «لو لم يكن ليّ في الجنة سوى جناح بفندق تاريخي صغير، في بلدة محدودة بجبل أخضر، تحرس بحيرة هادئة وصافية وتعرف مناخا طيبًا، فهذا يكفي».*

*انظر، طائرتنا فوق رأسك الآن، أحضرتُ لك هذه الزهور الحمراء الحزينة.*

*أرى العامل يرفع السِراج، ويُنادي وهو يمشي بين المَقابر، يبحث عني. سأترك طائرتنا معك وباقة الزهور، وسأرحل فمن غير المسموح لأحد بالتواجد ليلًا. أرقد بسلام حتّى نلتقي قريبًا، ففي كلّ مرّة أُقدّم نفسي للبحر يردني إلى الشاطئ، اطمئن؛ فأنا أبحث عن الموت بكلّ عزم، وسنلتقي قريبًا.*

»

طوال الوقت كان أمين يُغازلها في صمت، وتُحلق خيالاته لأقاصى سّماء حُسنها، فالنساء كالروايات، الحزينة والرومانسية والغامضة، ومن الرجال منّ يقتني رواية من أجل غلافها الأنيق. صفق مع الناس، لم يكن يهتم بما تقول، فلم ولن يخسر وقتًا في قراءة رواية أو الاستماع إلى قاصّ وإنّ امتلك مُتسع من الوقت.

صفق الجميع بحرارة، وانحنت لتحية الجمهور وفي يدها نسخة من روايتها ثم جلست، بالكاد ظهر المَقعد يُلامس كتفيها، دارت المُناقشة.

بعد المَعركة مع النقاد، أحاطت بها سحابة من الجمهور بدت وسطها كنواة، اقترب أمين، شعر بقوة وصلابة وقفتها، اتضحت تفاصيل جمالها أكثر؛ تفاحة أدم بارزة، فوقها وجه يجمع سمات العرب والعجم، الشعر الأسود والوجه الملائكي، وابتسامة الأطفال، وبالنسبة إلى رجل شرقي العينين الملونتين فيهما قوة مغناطيس عملاق. عقد عطرها اتّصالًا بينهما، اقتحم ذاكرته مُباشرةً، لذا ستظل في ذهنه مرتفعة عما حولها من النساء. عرّف نفسه: «أهلًا، أنا فيزيائيّ»، كانت الفيزياء مَصدر فخر له، ردت: «الفيزيائيّ موسيقي متجول في الكون»، أخبرته أنها كاتبة ومؤلفة موسيقية، أضافت وهي تبتسم: «أحيانًا». في ذات الوقت التقط المُصور صورة لحديثهما، وهي تُحبّ الكاميرات وأضوائها.

قال لنفسه: «اكتشاف تلك الفتاة شيء مهم، مُعادلة لا تقل أهمية عن معادلة الطاقة الشهيرة لأينشتاين». قال لها لاحقًا: «هناك ايقاع بين الموسيقى والفيزياء، وما النجوم والكواكب والإلكترونات إلّا جوقة موسيقية تعزف وتتبع إيقاعًا موسيقيًّا دقيقًا، وبالتالي لابد لهم من مايسترو».

قالت: «سعيدة أن فيزيائيّ جاء للاستماع إليّ».

يُريد الحديث على نحو أفضل، فكّر، تحدّث مثل الفلاسفة: «أنا بحار أضل الطريق فأصاب واكتشف قارة جديدة»، هنا ظهرت بوضوح لكنته الّتي تميل كفتها إلى البريطانية، فقد أتى من بلاد احتلها البريطانيون.

لم تستوعب المغزى، أخذت الرواية من يده، سألته: «سيدي، ما اسمك؟»

«أمين.»

لم تسمع بالاسم من قبل، وغريب عن لغتها؛ لذا لم يلتقطه عَقلها منذ المرة الأولى، قالت: «أعتذر، كرر الاسم من فضلك».

«أمين، أنا عربيّ.»

كان القلم بين أصابع يدها اليُسرى الطويلة والدقيقة كعازفات البيانو، واللون الأحمر يطلي أظافرها، دونت في الصفحة الّتي تلي الغُلاف، فوق اسم الرواية:

«إلى صديقي الفيزيائيّ العربيّ، أتمنى أن تُفسد روايتي هدوء أيامك إلى الأبد، سارة»، خطها رقيق وواضح، الحروف كأنها مرسومة. شعر أمين بعِشرَة ومودّة بينهما.

سعلت سيدة خلف أمين، أشارت سارة إليها وهي تقول: «تفضلي»، أحيانًا يضطرك أحدهم إلى فعل أشياء غير لائقة. بالنسبة إلى أمين هذا يعني نهاية

الكون، قال لنفسه: «من تكون حتّى لا تستمع إليّ، مُجرد حَكّاءة مثل الجدات المُملات، اللاتي تبدأ قصصهن بكان ياما كان»، لا يستطيع أحد التنجيم بما يدور في رأس رّجل يعتبر الحياة علم، أمّا هي فالحياة بالنسبة إليها رواية عظيمة. بعد لحظات أعاد الرواية والإهداء إليها، وضع الكتاب أمامها، قال: «ليس أنا» واستدار لينصرف، لم يُبالي بحَرجها. يمتلك مهارة في التصرف بغرابة. نادت عليه: «أيها الفيزيائي»، التفت إليها فقالت: «هل قرأت رواية الغريب لألبيركامو»، لم تنتظر ردًا، واصلت: «ستجد نفسك فيها»، هل أمين يُشبه ميرسولت[18]؟

سألت لنفسها: «أيّ نوع من الروايات هذا الرّجل؟، تغمرك الغرابة منذ السَطر الأول، فتنقطع لها»، رغم وقاحة غرابته إلّا أنّ اختلافه جذبها.

**

حينما فتح باب شقته، ذهل، الفوضى تُغرقها، زجاجات «هايج أند هايج» مكسورة، كلّ قطعة أثاث مُفككة، نقروا الحوائط والأرض، بحثًا عن مخابئ سرّيّة. زيارة غير متوقعة لمُفتشي جهاز استخبارات وقد أخذوا مَعهم كلّ ورقة في الشَقّة. تغير وجهه، حاول تلقي الصدمة بهدوء، ليس جميلًا قدومهم.

مَسح صورة شابّة وقبل خدها، وعلّقها على الحائط، في مَكانها القديم، وقعت عينيه على دمية شيرلي، مُمزقة من كل ناحية وتتقيأ ما بي داخلها. أصلح ما قدر عليه. كانت رفوف المكتبة مكسورة على الأرض، لذا رص الكتُب فوق بعضها، وجعل منهم منضدتين؛ احداهما للهاتف والتلفاز. فحص التلفاز، وجد اصابته سطحية، الدوائر الكهربائية لم تتأذى، فقط كسروا الغطاء البلاستيكي الخارجي، بحثًا عن أيّ شيء مختبئ داخل التلفاز. وضع يد على الشاشة والأخرى على مؤخرة التلفاز، حمله وهزه بقوّة فسقطت قطع البلاستيك المكسورة على الأرض، وعاد إلى العمل. أمّا الألة الكاتبة

[18] بطل رواية الغريب، ويُعد نموذجًا للرجل الذي لا يُبالي، العبثي، عديم المَشاعر.

فانتزعوا الورقة من فمها وتركوها. لاحظ أن الهاتف لم يُخدش، وكأنه مُقدس، رفع السَّمَّاعة، إنّه يعمل. يجهل أمين ما بداخل السَّمَّاعة. تصرف كأنه أبلة، اتصل بالبوليس، لكنّ لم يأتي أحد.

نَظَّم مَكان للنوم، مُريح أن ينام اللّيلة على ذكرها وتخيل ملامحها، «لأنه ليس في الهاوية من يُقدسك، قربني منها وامنحني الغُفران».

***

في الصباح، ذهب أمين إلى مكتب تأجير الشُقق، لتضليل المرأة والتشويش على ذاكرتها، تكلم عن أشياء كثيرة، بالتأكيد تجاهل الكارثة التي لحقت شَقّته، حتّى لا يلفت الانتباه إليه. طلب شَقّة فارغة يستأجرها في البناية المُطلة على شَقّته الحالية، قالت له المرأة إن رّجل وزوجته طلبا الشَقّة المُطلة على شَقّته مُباشرةً، ولأنها كانت مُستأجرة، عرضت شَقّة أخرى أفضل وأوسع وبذات السعر، و افقت الزوجة على الفور إلّا أنّ الزوج كان قاسيًّا وأصَرَّ على موقفه، وحاول اغرائها بزيادة طفيفة في الثمن، قالت: «الشَقّة مُستأجرة، ولا أستطيع طرد المُستأجر»، فطلب لِقاء المُستأجر، وبالفعل استطاع اقناعه بالتنازل عن الشَقّة، و انتقل إليها. سألها: «منذ متي؟»، قالت: «قبل تأجير الشَقّة المجاورة لك بيوم أو يومين»، انتقل أمين إلى موضوع آخر.

كان الرجل وزوجته يتناوبان مُر اقبة أمين وشَقّته بعدسات خلف زجاج النو افذ. أمّا الشَقّة المجاورة له، فتستقبل المُكالمات والمُحادثات عن طريق جهاز تسجيل دقيق في سَّمَّاعة الهاتف.

***

ودارت الأرض حول محورها مرة أخرى...

لمح أمين صورته في الصفحة الأولى لجريدة المدينة وجريدة «ذا نوتلي صن»، خافضًا رأسه أمام الكاتبة سارة، صورته الصحيفتين قارئ ذليل أمام قلم سيدته. لم يدخل عالم الشُهرة كفيزيائيّ عبقريّ، في نظره العلماء شبه آلهة للكون، هؤلاء من يجب أنّ يعرفهم الناس ويُصغون إليهم ويظهرون على شاشات التلفاز والاعلانات المُضيئة في الشوارع وميدان التايمز؛ العلماء لا كُتاب الروايات الخيالية الّذين يسرقون الشُهرة وآلاف الدولارات. ماذا قدّمت الروايات إلى البشر والأرض غير التسلية؟، يستطيع البشر الاستغناء عن الروايات، لكنّ لا يُمكن الاستغناء عن العلم، فالعلم يصل إلى كلّ انسان في كلّ مِكان على هيئة اختراعات مُفيدة ومُضادات حيوية. لم يكن نرجسيًّا، تلك نظرته إلى الروايات والمسرحيات وصناعها، لا يثق إلّا في العلم؛ فهو الّذي يُخبرنا كيف شيّد الله هذا الكون الفَسيح، وكيف نستغل كلّ شيء فيه لخدمتنا؟

**

كان باڤو يصعد درج السلّم مُسرعًا، خلفه بخطوة أمين، لم يكن يُفضل استخدام المصعد في الوصول إلى مكتبه بالطابق الثالث في مبنى الجامعة، فالجسد كالألة تحتاج إلى الحركة وإلّا تعطل. تعثر أمين بالدرج وكاد أن يسقط، توقف باڤو وقال وهو يبتسم: «كدت أن تنال ما تستحق»، قال أمين: «خطوة طوال القامة يُمكنها بلع ثلاث درجات مرة واحدة»، ابتسم باڤو.

وضع باڤو يده فوق كتف أمين وسحبه معه، قال: «يجب أنّ تواظب على التمارين الرياضية، أمّ المشاهير لا وقت لديهم للرياضة!»، رد أمين: «مرّة واحدة في الجريدة، لن أبقى في ذاكرة الناس سوى ساعات».

وصلا باب المكتب، وضع باڤو في يد أمين الورقة البحثية الأخيرة الّتي استلمها منه في جراند سنترل وقد دوّن تعديلات جديدة فوق الأسطر بخط يده.

رفض أمين التعديلات وقدّم معاذير علميّة، لكنّ باڤو رواغ ببراعة وأصرّ على موقفه، وقال مُنهيًّا المسألة: «مونتغومري ير افقني الرأي».

غضب أمين وقال: «هذا جنون، أنا ومونتغومري مُتضادين»، العلاقة بينهما مُعقدة وتتجاوز الغيرة، وكانت نظرة أمين إلى عدو انية مونتغومري ضيَّقة، بدا فقط وكأنه يؤمن أنّ أمريكا للأمريكيين مُنتصبي القامة، وليعد أشباه البشر إلى غابات أفريقيا الوسطى والموز. يكره المُهاجرين إلى درجة تُقارب المَرض.

«هناك هدوء نسبيّ، مُهمتي التوفيق بينكما والتأكد من هدوء جبهة القتال.»

«لا أطمع أنّ نكون صديقين.»

«على الأقل لا تكونا عدوين.»

فتح أمين لأستاذه الباب، وأغلقه خلفه، مُريب هذا الرّجل، انزلق في بئر القلق، ودخل حقل ألغام الهواجس، لماذا يضع مونتغومري أنفه في عملي؟

**

لا يعي أمين قوانين النِساء جيّدًا، انسان بسيط، لمْ تناديه للحب يومًا نداهة، ولم يجد حذاء سندريلا، ولم يظهر له جنى علاء الدين. لكنّ معروف حتّى للأحمق؛ المرأة في العادة لا تنجذب ناحية الرّجل الّذي يلهث خلفها. قدر مضبوط من التجاهل يكفي، فالتجاهل كالملح. لذا قرر المُحافظة على مسافة مضبوطة بينه وبينها، تمامًا كما تحافظ الأرض على مسافة بينها وبين الشمس أثناء دورانها حولها، لا تقترب فتحترق ولا تبتعد فتتجمد.

لم يكن رّجلًا مُبهرًا، وما تعده النساء رّجلًا مُبهرًا، قد يكون بالنسبة إلى أمريكية عاديًا، فما بالنا إن كانت كاتبة وموسيقية؟

رَنَّ جرس الهاتف، رفع أمين السَّمَّاعة.

«أهلًا صديقي العربيّ.»

صوتها، الأجدر أن يُنكر أنه عرف رقة صوتها ويسأل عن هوية المُتصل ومنّ يكون. قال: «أهلًا، ماذا تُريدين؟»، اعتاد وجود هَدف لكلّ حَدث في الحياة، وهو فقط يُريد مَعرفة الهَدف من اتصالها.

قالت: «آسفة وحزينة لما حدث، أرجوك تقبل اعتذاري، نُسختك مازالت معي، أريد أن أهديها إليك، وأرجو أن تقبل هديتي».

رد: «وماذا أفعل الآن؟، أنا مُسافر في الصباح».

«رحلة موفّقة، لكنّ إلى أين؟»

سألها: «من أين حصلتي على رقم هاتفي؟»

«من بطاقة التعارف، أنت إنسان على فطرة الربّ، عادةً الناس لا يتركون خلفهم كلّ هذا الكمّ من المعلومات، الأغلب يكتفون بكتابة أسمائهم»، وبخ أمين نفسه.

بعدما وضع السَّمَّاعة سأل نفسه: «هل هي مشغولة بي كما أنا مشغولٌ بها؟»

نظر في ساعة الحائط البندولية، أطعم الألة الكاتبة ورقة، وأخذ ينقر الحروف؛ ويعيد كتابة البحث بعد اقحام التعديلات الّتي دونها باقو بخط يده فوق المسودة (الأخيرة).

***

التقيا بجوار مَقعد خشبي يحتل احدى جوانب الممشى الرابط بين مبني ناسو العتيق (أقدم مباني جامعة برنسيتون) وبوابة فيتزراندولف الأسطورية الفاتنة، والمغلقة لأكثر من ستين عامًا -وفى عام 1970 تم ترميمها وفتحها للزوار والطلاب، ورغم ذلك تجنبها الطلاب من أجل أسطورة تقول إن

منّ يخرج من بوابة فيتزراندولف لن يتخرج أبدًا أو لن يتخرج في الموعد المُحدد.

كلمّا أتى أمين إلى هنا فإن الأجواء الملكيّة تُلاحق روحه، المكان مثالي لالتقاط صورتذكارية لا تتلاقى في شيء سوى الروعة.

هناك منّ يُراقب اللقاء، رّجل غريب يقف بعيدًا، غير مُريح، يرتدي قُبعة فيدورا رمادية، مُستديرة اللسان.

«سيدي.....»

قاطعه باڤو: «لديك مَهمّة الآن».

حان الوقت، اقترب الغريب، صافح باڤو، كان أمين مُجبرًا على مدّ يده للمُصافحة، تصافحا للمرة الأولى، لكنهما تقابلا سابقًا، غادر باڤو وترك الغريب مع أمين، ورطّ تلميذه، خلع الغريب قبعته وأمسكها من اللسان، تجنب إظهاربطانتها الداخلية.
من المُفترض أن يُقدّم أحدهما نفسه، نظر أمين ناحية كشك من الخشب، في الأعلى لافتة باللون الأحمر مدوّن عليها ***coca cola*** باللون الأبيض والخط المائل.

قال الغريب: «أهلًا، أنا بيتر».

«أهو اسمك الحقيقي؟»

«وهل اسمي سيغيرفي الواقع شيء؟»

بعد قليل، قال أمين: «أشكرك، لقد أنقذت حياتي حقًا في هارليم».

«إنه واجبي.»

«يبدو أنك تعرفني؟»

«ليس كثيرًا.»

«لكنكّ بالتأكيد تعرف ماذا تُريد مني؟»

«تقصد، ماذا يريدون منك؟، لا أريد شيء لنفسي.»

«هلا رفعت الستار قليلًا لأرى؟»

«أحب العمل خلف الستار، تعالى معي خلف الستارو انظر»، لم يُفصح عن شيء وكأنه إدجار هوفر[19]، أضاف: «كما تعلم فجر الروس قنبلتهم النووية بعدما سرقوا أسرار القنبلة النووية الأمريكية، ومنذ أن قبضت الاستخبارات على الجاسوس يوليوس روزنبرغ وزوجته إيثل؛ أصبح جميع الفيزيائيين تحت أعين الاستخبارات، ومنهم أنت.....

قاطعه أمين: «لقد مرت سنوات على خيانة عائلة روزنبرغ».

«د. أمين أنت لا تعي جيّدًا طريقة عمل أجهزة الاستخبارات، فالخطأ الّذي يقع مرة لا يتكرر مرةً أخرى، فالاستخبارات تتعلم من أخطائها.»

أضاف: «مُر اقبة الاستخبارات لك ليس لأنك مُتهم، هم يهتمون بوضع هذه الحقيقة بين يديك، خصوصًا و أنك مُرشحًا لنيل الثقة والتعاون مَعهم». علم أمين أنّه يكذب، قال: «هل سأنضم إلى جمعية كافندش[20]؟»

---

[19] أول رئيس لمكتب التحقيقات الفيدرالية، وكان الجميع يخافون ملفاته السرّيّة حتّى رؤساء الولايات المتحدة، ظل خمسين عامًا في منصبه حتّى مات في العام 1972 و اتلفت سكرتيرته الخاصّة «ملفات هوفر السرّيّة».

[20] نسبة إلى هنري كافندش؛ عالم انجليزي، وكان الشخص الأوّل الذي عزل الهيدروجين، وخلط الهيدروجين بالأوكسجين كي يُشكّل الماء، وتوّقع قانون بقاء الطاقة وقو انين أخرى، واستطاع حساب وزن الأرض بنسبة خطأ حوالي 1% فقط عن حسابات العُلماء الحالية.

ابتسم الغريب وقال: «أنت تعلم الكثير»، والكثير هنا أنّ الجمعية واجهه مشروع سرّيّ لوكالة الاستخبارات، وكان أمين يحلم بالانضمام إليها.

«هل أنت مندوبٌ عنهم؟»

«حينما تقول شيء عن جامعة برنسيتون، فهل معنى ذلك أنك مندوب عن الجامعة!، الاستخبارات لا توكّل أحد.»

«إذن ليس لديك أيّ صفة رسمية، هل أمتلك خيار القبول أو الرفض؟»

«بكل تأكيد أنت في بلدٌ حر، لكنّ أرجوك لا تمنحني جوابًا الآن، فكّر في الموضوع جيّدًا.»

«أرفض، فأنا لا أحب المتاعب.»

كان أمين يُدرك أنّ جمعية كافندش فخًا؛ دائرة ضوء تفضح.

قال الغريب: «سنتقابل مرّة أخرى».

«يُسعدني ذلك.»

***

## -الفصل الرابع-

أمام إشارة مرور حمراء، تقف سيارة مُستأجرة، فولفو سوداء (PV444)، يقودها أمين، خلفه سيارة شيفرولية كورفرت، حمراء ومكشوفة، تنتظر أيضًا أوامر إشارة المرور. فكّر أمين في حِيلة، برق كشاف إشارة المرور باللون الأخضر، تجاهله أمين، بدأت السيّارات بجواره تتخطى الخط الأبيض. صرخ بوق السيّارة الّتي خلفه، ظن سائقها أنّ أمين نسيَّ. لم يتحرك، صرخت السيّارة مرّةً أخرى بقوة أكثر وبدا وكأنها ترتجّ من الغضب، قلدتها جميع السيّارات الّتي ساقها القدر خلفه، انفجرت ضجة مُزعجة، وتلقى أمين شتائم. نزل وعينيه على صف السيّارات، تظاهر بأن سيّارته تعطّلت. تخطته أول سيّارة خلفه، تمهلت السيّارة التي خلفها، في النهاية لم يجد السّائق بُدًا من تخطي الإشارة المفتوحة، بعدما تخطاها أوقف السيارة على جانب الشارع و انتظر أمين الّذي تابع السيّارة وتأكد أنها تُر اقبه.

أدار أمين السيّارة و اتجه ناحية اليمين، خالف التعليمات وتملّص من المُر اقبة وأحس أنه في مأمن، لم يعد يهتم بالجهة الّتي تُر اقبه.

لم يتوقف إلّا عند الهَدف.

**

دخلت سارة من باب القاعة بتؤدة ورفق، لها إطلاله تُسعد قلبه. تضع قليل من مساحيق الزينة، وجنتيها يشبهان الحمرة المتبقية من ضوء الشمس ساعة الغروب، بعكس فلسفتها في اختيار الألوان -ترتدي فساتين مُشرقة وفضفاضة، وتقبض على أكمام الفستان الطويلة بأصابعها الدقيقة.

ارتدت فستان أسود، حوا تفاصيلها لكأنه ذاق حلاوتها، يرفعها عن الأرض كعب حذاء أسود. لم تُبدي شيئًا من مفاتنها لكنّها بدت أنثى في ريعان الطفولة. كأنما اللون الأسود خلق من أجلها، بينهما رباط مُقدس، دويتو موسيقي، لاطفته حتّى أزالت وَحشته. لم يكن يليق بها رغم حسنه، فلا يليق بوردة أنّ تتشح بالسواد.

رغم تجاوز سارة العشرين عامًا إلّا أنها لم يسبق أن واعدت شابًا، ولم تلوث شفتيّها، لذا كانت مُرتبكة وجلست أمام المرآة طويلًا، وبخت نفسها على اختيار المكان، في الهاتف سألها: «أي مَكان ترتاحين إليه؟»، قالت دون تفكير: «المكتبة».

اللقاء الأوّل بينهما جرى في مكتبة كارنيجي-مَكتبة نوتلي العامّة، وسط رُفوف مُكدسة بالكتب و أناس كثيرون عديمي الفائدة بالنسبة لقصتنا، ففي ذلك الزمن؛ كانت القراءة أعظم تسلية. جلسا إلى الطّاولة نفسها، أسفل مصباح، في مِعصمها دمْلج من ذهب، غار منها القمر.

الحُبّ أوبريت يجمع الموسيقى والشعروالرقص وأحيانًا التمثيل، وهناك من يُتقن الأخيرة، لكنّ أمين لا يُتقن صنعة الحُبّ. انتظرت أن يُخدرعقلها ويقول كلامًا جميلًا، لكنّه قال: «كوني هادئة، خلفك شابّ يُر اقبني، لا تنظري»، لم يكن يود الحديث عن ذلك، وكان عليه ادِّخار المفاجأة إلى وقت مُناسب، لكنّ الأمر كان يزن داخل عقله. خالفت تحذيره وخطفت نظرت، رأت شابّ غارق في صفحات كتاب. قالت وهي تشد كُمّ فستانها وتُغطي أصابع يدها: «لماذا يُر اقبك إدغار هوفر؟ (تقصد المباحث الفيدرالية) هل أنت لص أمّ زعيم عائلة من عائلات نيويورك؟»

قال: «خيالك واسع»، اعتقد أنّها لم تأخذ كلامه بجديّة، وحسبتها مُزحة أو كذبة.

«أنا كاتبة؛ لا أملك إلّا الخيال الواسع الّذي يصنع من الحروف قصّة مُمتعة.»

رد مُتأخرًا: «أظنه تابع للاستخبارات السوفيتية.»

اندفعت قائلة: «كي جي بي!»، كان يعتقد أنها ستخاف وترتجف حينما تنطقها. كانت مذهولة، وعينيّها مُتسعتان من الدهشة. رغم علمها أنّ أعين الاستخبارات لا تترك عُلماء الفيزياء، لكنّها لم تتوقع يومًا أنّ تُقابل أحدًا منهم.

«نعم، إنّهم يعدون أنفاسي.»

«هل أنت ماهر في الفيزياء؟»

«نعم، إنّه عملي، ولا أعرف غيره.»

«بالتأكيد، ذلك واضح جدًا»، أكملت: «طوال حياتي كنتُ أكره الرياضيات والمُعادلات».

«ماذا لو أغلقنا اشارة مرور ميدان مُزدحم، وتركنا السيارات للاحتمالات؟»

أجابت: «ستكون النتائج كارثية».

«الرياضيات والمُعادلات هي إشارات المرور الّتي تُنظم عمل كلّ شيء في الكون، بدونها ستصطدم الكواكب ببعضها وبالشمس، كلّ شيء في الكون يخضع للقانون عدا البشر، لذا سيهلكون حتمًا.»

«ما يخرج من فمك يستحق الطبع في كُتب.»

قامت و اتجهت ناحية رف للكتب يسار رّجل المُراقبة، وقفت وأدمت النظر إليه، صامتة، تلتقط أدق الأفكار وتقتبس من وجهه شخصية جديدة لروايتها البوليسيّة التالية، فهي مُغرمة بكتابة الحياة والناس. عادت إلى

الطّاولة بأيّ كتاب، أخرجت من حقيبتها ورق أبيض وأخذت تُقيد الأفكار بالتدوين، تكتب كلّ ما يحط في عقلها، قال أمين: «من المُفترض أنّ يكون لقائنا الأوّل في مكان هادئ أو مطعم رومانسي»، أشارت إليه أنّ اصمت أيّها الأبلة. حينما انتهت سألته مازحة: «وهل رجال الـ كي جي بي لا يدخلون المَطاعم الرومانسية؟»

سألته: «هل قرأت رو اية جورج أرويل[21]؟»، رد: «وهل ذلك يُفيد؟»، «ستفهم لُغز النظام الّذي يُر اقبك وكيف يُفكر»، أخبرته أنّ القادة السوفييت يمنعون الرو اية من دخول الاتحاد السوفيتي بينما في أدراج مكاتبهم وغُرف نومهم نسخ من الرو اية مُترجمة بدقة، سألته: «هل تُحب قراءة الرو ايات؟»، يغزو عقله شعور بالتفوّق عليها لكنّ من غير اللائق أنّ يزدري عملها منذ اللقاء الأوّل، ويُخبرها أنّها غاية في التفاهة مثل الرو ايات الّتي تقرأها وتكتبها، أجابها بالصمت فأضافت بتعجب: «هل هناك شابّ لم يقرأ رو ايات ديكنز؟»، أضافت: «تستطيع استعارة ما تحتاج من الكتب من هنا».

رد بعجرفة: «لدي في مكتبة الجامعة ما يكفيني».

«وهل في مكتبة الجامعة كتب أرثر ميلر؟»

لم يسمع بأرثر ميلر، لكنّ يبدو أنه قاصّ، قال: «لا أظن، والبشر لا يحتاجون الرو ايات، البشر يحتاجون العلم فقط، هناك الحقيقي والمُزيف، والرو ايات شيء مُزيف»، في اعتقاده قُراء الرو ايات حمقى، ينتظرون القمر بعد ميلاد الشمس، ويحاولون اصطياد حوت من غابة وفيل من أعماق البحر.

في هذه اللحظة؛ ابتكرت من أجله مُصطلح «الاختلاف الجذّاب»، ودونته.

---

[21] تقصد رو اية «1984».

قالت: «أنت لا تُدرك المغزى من الرو ايات، نعم إنها للتسلية، لكنّ فيها أشياء أخرى، مقوله جوناثان سويفت في رحلات جوليفر لا تفلت من ذهني: "هدفي الأساسي ليس تسليتك ولكنّ أنّ تعرف"، وذلك رغم إنّ قصته خيالية»، سألته بغضب: «ألم تقرأ شيئًا لجورج ويلز؟»

«لا.»

ذهبت إلى رُفوف الرو ايات، وأخرجت رو اية «آلة الزمن» لجورج ويلز، ذهبت إلى مكتب الأمين وسجلت استعارتها، وأعطت الرو اية إلى أمين بالإضافة إلى رو ايتها، قلّبها كأنما يُلقّب قائمة طعام لا يفهم لُغتها، قال وهو ينظر ناحية رفوف مُكدسة بالرو ايات: «ما كلّ هذا الكمّ من رو ايات؟، الرو ايات جميعًا مُتشابهة، حكاية واحدة، الأمر يُشبه بيع وردة واحدة آلاف المرّات»

ردت: «آلاف الأفكار أبهرتنا بها حكايات الجدات وآلاف الرو ايات خلال مئات السنين، وبرغم ذلك مازال الأدب قادرًا على امتاعنا، مازالت الرو ايات تأخذنا إلى عوالم أرضية وسماوية، بدون الورق ما كنا سنذهب إليها، أقصد بدون هؤلاء الكُتاب المُبدعين. آلاف الحكايات في الكتب ومع ذلك هناك حكايات لم تروى بعد، تنتظر أنّ يستخرجها أحد».

على باب المكتبة، طلب منها ألّا تقول شيء مُهم على الهاتف، ما كانت لتتركه يرحل دون أنّ ترمي في وجهه هذا السؤال: «هل تؤمن بوجود إله في السّماء؟»

«لماذا تهتمين بذلك؟»

«لأنهم يقولون إنّ جميع الفيزيائيين لا يؤمنون بالربّ.»

«هل تكتبين جيّدًا؟»

«نعم، فأنا أنتقى كلّ كلمة بعناية، ولكنّ لماذا تسألني عن ذلك؟»

«لأنهم يقولون إنّ جميع الكُتاب لا يكتبون جيّدًا.»

ابتسمت، أضاف أمين: «هم مثل أعضاء الكونجرس».

«لا تنل من والدي أيها العربيّ.»

«أهو عضو في الكونجرس؟»

قالت: «كان أبي كاتبًا»، وأضافت: «كثيرًا ما كان يُردد: بدأتُ الكتابة مع صديق، أكمل الطَريق وأصبح مَشهورو أنا تزوجت»، أضافت بحسرة: «ذهبا معًا إلى الحرب الكبرى الثانية، ومات أبي اثناء انزال النورماندي، كان محظوظًا ولم يُدفن في فرنسا، أمّا صديق أبي ففي واحدة من معارك الطريق إلى برلين وقع هو وزمُلائه في فخ نصبه الألمان؛ حقل ألغام التهم ساقيه وعقله، عاد الشابّ إلى الوطن مُكتئبًا، وبدلًا من أنّ يصير ريماك[22] الثاني ترك الكتابة وخمد ذكره».

أدار وجهها ناحية نجوم السّماء، بعيدًا عن أنوار المكتبة الّتي تُطفأ، وقال: «هناك ايقاع بين الموسيقى والفيزياء، وما النجوم والكواكب والإلكترونات إلّا جوقة موسيقية تعزف وتتبع إيقاعًا موسيقيًّا دقيقًا، وبالتالي لابد أنّ لهم مايسترو». سألها: «هل تعرفين نظرية الكمّ أو ميكانيكا الكمّ»، أجاب سريعًا: «العلم الّذي يدرس سلوك الجسيمات الدقيقة كالبروتونات والنيوترونات والإلكترونات، أيّ الجُسيمات دون الذرية؛ الأصغر من الذرة. وهذا عملي».

أضاف: «سأظل أؤمن أنّ خلف السِتار إله يُحرك الذرات الصغيرة جدًا، يرصّها فتكوّن إنسان، سماء، حجر، كوكب، مجرة، قَدر، نصيب، يأمرها

---

[22] إريك ماريا ريماك: كاتب ألماني، شارك في الحرب الكبرى الأولى وكتب رواية عن أهوالها بعنوان «كل شيء هادئ في الميدان الغربي»، نالت شهرة عالمية وحققت أعلى المبيعات، وحوّلت إلى فيلم مرتين، ورُشحت إلى جائزة نوبل في العام 1931.

فتفعل ما يشاء. إننا نُشاهد ونفهم حركة الأشياء الكبيرة بينما هو يهتم ويرصد ويُلم التفاصيل الدقيقة جدًا والغير مرئية لنا، وهذا هو السر».

نظرت إليه بفخر كما تنظر إلى أبطال روايتها حتّى الأشرار، فهي تهتم بكتابة أبطال الرواية، تُشرّح أفكارهم، تصفهم بدقة؛ إلى أنّ تُصبح راضية عنهم، فالأبطال الجيدون يضيفون الهيبة إلى الرواية.

**

في تلك الليلة كانت السّماء تصب المَطر بغزارة وتسقي الأرصفة، أعادها بسيّارته إلى البيت، تسكن في نوتلي بالقرب من نهر باسايك وموقع الكتيبة 98؛ المعروف الآن بمعسكر نوتلي[23]. بعدما تركها اقترب رّجل ونادى عليها بصوت غليظ: «أنسة سارة»، توقفت، اقتحم الحديقة خلفها، رّجل ضئيل بوجه نحيل و أنف حادة، من أصول ألمانية. صافحها، ودت لو سألته إنّ كان ضابط استخبارات، لكنّها لا تشأ تعريض حياتها للظنون والمشاكل.

قال الرّجل وسط صوت المَطر: «قد تظنين أنّي تابع للاستخبارات، لكنّ في الحقيقة أنا زميل أمين في جامعة برنسيتون». رفعت رأسها وردت بجفاء: «وماذا تُريد مني؟»، ومسحت وجهها بكفيها، فأغرقه المَطر مرّةً أخرى.

قال: «ربما أخبركِ أمين أنّ جهاز استخبارات يُطارده، ولم يُسمح له بدراسة الفيزياء النووية، وأنّ مونتغومري؛ الّذي هو أنا أكرهه وأضطهده، كلّ هذا يقع داخل عقله فقط، اللعينة الأوهام الاضطهادية، مسكين أمين».

ذُهلت، وقالت لنفسها: «ماذا، أوهام اضطهادية!»، طلبت منه أن يقول اسمه مرةً أخرى، رد بوضوح: «مونتغومري».

---

[23] كتيبة مدافع مُضادة للطائرات، تحمي جسر جورج واشنطن من هجوم مُحتمل للطائرات القاذفة السوفيتية.

«لم أسمعه يتكلم عنك مُطلقًا».

«سيتكلم عني، بالتأكيد، سيقول ما تُخبره به أوهامه»، أضاف مونتغومري: «لقد أوقعته أوهامه في مشاكل كثيرة، لكنّ المشكلة الأخيرة الأعظم، وقد تطوعتُ لحلها».

قالت باهتمام بينما قطرات المَطر تتساقط من شعرها: «ما هي؟»

«ذات يوم رأي مع أستاذه كيزستوف باڤو حقيبة بها أبحاث ومشاريع علمية تخص الجامعة، أخذ يسأله إنّ كان فيها أسرار عسكرية، فأكد له باڤو أنّه لا صحة لما يقول، وفتحها أمامه، كنتُ شاهدًا على تلك الو اقعة.»

«وماذا حدث فيما بعد؟»

«سرق أمين الحقيبة، والآن باڤو مُصرًا على ابلاغ البوليس وإدارة الجامعة أنّ أمين يتوهم أمورًا لا تحدث، وبات يُشكل خطرًا.»

«وما المطلوب مني؟»

«المطلوب أنّ تُساعدينا في استرجاع حقيبة باڤو، كي لا يتأذى أمين، فهو يرفض زيارة أيّ طبيب نفسي.»

«لماذا اخترتني بالذات؟»

«قد يكون يُحبك، و أنا مُتأكد؛ الحُبّ سيصنع منه انسان آخر.»

أجاد مونتغومري تصنّع العواطف الّتي يحتاجها المَشهد. ودعته، دخلت البيت، كانت مُتعطشة للمزيد. ارتدت ملابس مُريحة وجلست تكتب قرب المدفأة، تمنت لو كان عندها حيوان أليف يجلس بجوارها الآن؛ ويتحدثان.

**

مدّ يده ورفع المُفتاح، أوقد ضوء الصالة، وعَرّى صورة الفتاة على الحائط ورّجل كان يكتسي بالظلام، واضعًا ساق فوق ساق، يلوث هدوء الغرفة، يُحدّق في أمين ببرود ودون أنّ يرفّ له جفن، يجلس وسط الفوضى، عن يمينه مروحة مُتنقلة راسية فوق الأرض وخلفه رفوف المكتبة أيضًا على الأرض، قال: «معالم زيارة الاستخبارات الأمريكية واضحة على كلّ شيء في بيتك». سكت أمين وقال في نفسه: «ماذا تفعل في بيتي أيها الملعون؟»، نظر ناحية اليمين؛ إلى الستائر، وجدها مُسدلة، علّق قبعته على مسمار في الحائط فوق مِعطف الضيف المزود بجهاز تسجيل، ووضع الرو ايتين وقلمي حبر كانا في جيب قميصه فوق منضدة عبارة عن كتُب مرصوصة فوق بعضها، وسع ربطة العنق وخلعها، لم ينزع حذائه. ذهب إلى التلفاز العريان، فلا غِطاء يحمي الدو ائر الكهربائية. فرد هو ائي التلفاز الداخلي الأيمن وفرد الضيف الأيسر، كونا الرقم 7 فوق التلفاز، فتح أمين التلفاز ورفع صوت مَحطّة «إن بي سي»، كان المُذيع يقذف الأخبار العالمية، قال الضيف الأصلع: «لماذا كل هذا الخوف؟»، قال مُذيع الأخبار العالمية: «الاتحاد السوفيتي يوجه إنذار إلى الدول الثلاث المُعتدية على مصر». تداخل صوت الأصلع مع التلفاز: «منذ تواصلنا معك أصبح لزامًا علينا حمايتك» وأخرج من حقيبته جهاز صغير، وضعه على الأرض. قال أمين: «هششششش»، و أنصت إلى صوت المُذيع وسط صوت «زززززز» ضعيف: «وّجه الاتحاد السوفيتي اليوم ثلاثة انذارات دبلوماسية إلى الدول المُعتدية على الأراضي المصرية، وقد صرح مصدر دبلوماسي أنّ الاتحاد السوفيتي لوّح بأنّ الأسلحة النووية السوفيتية جاهزة، ولندن وباريس ليستا بعيدتين، كما وجه انذرًا مُهينًا إلى إسر ائيل؛ قد يقلتعها من الخريطة»، فَرِح أمين، خصوصًا من خبر إهانة السوفييت لإسر ائيل، قال الأصلع: «الاتحاد السوفيتي ينصركم».

حدّق أمين في الجهاز على الأرض وقال: «ما هذا؟»

رد الأصلع: «جهاز يشوش على أجهزة التنصت ويُعيق عملها، فكما تعلم كلّ تكنولوجيا أمامها تكنولوجيا مُضادة»، قام و اتجه ناحية أريكة مُنجّدة تسع ثلاث أشخاص، اشتراها أمين قبل أيام، ينام عليها، ويكتب عليها أبحاثه وخطابات أبيه، قال أمين: «أنت تورطني، سيعلمون بوجود جهاز يشوش على أجهزة التنصت، ويسألون أنفسهم من أين لهذا الحقير بجهاز تشويش»، جلس الأصلع على الأريكة وقال: «تفضل بالجلوس بجواري، لا تقلق، أمر كهذا لا يفوتنا، هم الآن يسمعون صوت سكون الليل، كأنه لا صوت في الشَقّة، هذا الجهاز يستطيع أيضًا اصدار موجات كهرومغناطيسية تقوم بتعطيل جهاز التنصت، سيحتاجون إلى دخول شقتك لإصلاح أجهزتهم اللعينة».

«ألم أخبركم في نيويورك أن الاستخبارات الأمريكية تُر اقبني دائمًا، هل أنتم مجانين، لقاء في شقتي!»

«سيد أمين الاستخبارات الأمريكية تُر اقبك، لكنّها لا تُر اقب شقتك إلّا حينما تكون فيها، وحينما تكون بعيدًا عنها؛ لا أحد يكون مَعها»، اتصلت صورة التلفاز بعد أن كانت مُتقطعة وتلاشى صوت «زززززز».

سأل وهو يُشير ناحية المكتبة الأرضية: «هل فيها كتب لماركس أو لينين؟»

رد أمين ساخرًا: «أو تروتسكي....»، قاطعه الأصلع: «أظنك تعرف نهاية ليون تروتسكي؟»، وأمسك دمية شيرلي المُمزقة من كلّ ناحية. دار في عقل أمين مشهد القاتل وهو يضرب جمجمة تروتسكي بالفأس؛ بكل قوة. قال: «اطمئن، كتب الشيوعية جريمة في الولايات المتحدة وإنّ لم يُعاقب عليها القانون صراحةً، لا مِكان هنا للمؤمنين بالاتحاد السوفيتي».

قال الأصلع: «أعلم أنك تعيش وحيدًا، لذا أحضرتُ معي طعامًا»، دعى أمين إلى الطعام. رفض أمين، خاف من وجود مصل الحقيقة في الطعام، وكان معروفًا استخدام أجهزة الاستخبارات مقادير مُعينة من عقارات الهلوسة،

لإضعاف قُدرة العقل على استحضار الكذب ونسجه. قال أمين: «لقد أخطأتم في اختياري».

ابتلع الأصلع اللقمة وقال: «تقصد اضطررنا إليك، كلاهما سيّان، في النهاية لدينا طُرق لإجبارك».

اعتبر أمين كلام الأصلع إهانة، قام ووقف أمام الأصلع وقال: «أخبر منّ أرسلك أنني لن أتعاون مَعكم، ومن الأفضل لكم الابتعاد عن طريقي، اشغلوا أنفسكم بطائرات الرُكاب المدنية الّتي تدخل المجال السوفيتي وتلتقط الصور، وتكشف مو اقع الدفاع الجوي».

توقف الأصلع عن مضغ الطعام، صفق وهو يبتلع، قال: «لكلامك هيبة أفلام هوليود»، أضاف وهو يغرس السكين في قطعة اللحم: «أناشد الربّ هل تظن أنّنا شركاء ديترويت[24]؟».

أضاف: «أنا مُجرد وسيط يحاول اتمام صفقة».

«لا يُمكنك اتمام الصفقة وسأشرح لك السبب، كما تعلم أنا عربيّ، مشكوكٌ فيه دائمًا، حتّى أنّهم رفضوا أن أدرس الفيزياء النووية، صدقني أنا غير مُفيد بالنسبة إليكم.»

«يبدو أنّك مُحبط وتحتاج فتاة بجانبك، ربّما اسمها سارة، لا تُخبرها بأسرارك، إنها أمريكية، مدسوسة عليك من الاستخبارات الأمريكية وتكيد لك». ظهر مُذيع مَحطّة «إن بي سي» ليُلقي خبر عاجل: «الولايات المُتحدة

[24] تنظيم إجرامي أسسته عائلات مدينة ديترويت الاجرامية؛ بعد حروب طاحنة بينهم، ومازال يعمل إلى اليوم ويتحكّم في أوكار القمار وتجارة المخدرات.

تستنكر العدوان الإسرائيلي/الفرنسي/البريطاني على الأراضي المصرية، فهل تصمد الدول الثلاث أمام الضغط الدولي الواقع عليهم؟»

قال أمين: «أحبها، و أثق فيها أكثر من أيّ شخص في هذا العالم».

قال الأصلع: «جيّد، لقد نجحت الأمريكية في السيطرة عليك»، قام ومسح يديه في الستائر خلف الأريكة، فتحها وقال: «لا داعي للتخفي، فكل شيء يصلهم»، سأل: «هل دخلت معها فخ العسل؟»، سأل أمين نفسه: «ما فخ العسل هذا؟»، أكمل الرجل الأصلع: «هل تعرف ريتشارد سورج؟»، شرح بإيجاز: «جاسوس لن يأتي مثله في التاريخ، ألقت الاستخبارات اليابانية في طريقه فتاة اسمها كيومي، دخل فخ العسل وأوقعت به الفتاة الجميلة، أعدم في اليابان عام 1944».

**

على دَرَج السلّم، التقى الرجل الأصلع بضباط الاستخبارات المناوب في الشَقّة المُجاورة لأمين؛ كلًا منهما يحمل حقيبة يد، نظر إليه كأنه عرفه أو أوشك أو شكّ.

**

قبل سارة كان أمين يحلّ مسائل الفيزياء حتّى أثناء نومه، جلس على الأريكة وأمسك رواية «آلة الزمن»، تأمل الغلاف طويلًا، كأنما مُتردد في القراءة. وأخيرًا أثنى الغلاف والصفحة الّتي تليه.

استوقفته جُمل مثل:

«مُسافر عبر الزمن..... المكعب له ستة أوجه..... هل يُمكن أن يكون للمكعب وجود حقيقي؟ ..... كل الأشياء الحقيقية لابد أن يكون لها أربعة أبعاد، ثلاثة في الاتجاه؛ الطول والعرض والارتفاع، وواحد في الزمن..... نحن نستطيع التحرك في المكان إلى الأمام والخلف والجنب لكننا

نتحرك في الزمن في اتجاه واحد فقط من البداية إلى نهاية حياتنا، لذا نميل إلى الاعتقاد أنّ البعد الزمني مختلف عن الأبعاد المكانية الثلاثة..... ومع ذلك ليس هناك فرق حقيقي بين البعد الزمني والأبعاد المكانية الثلاث.... نستطيع التحرك في البعد الزماني إلى الوراء والأمام كما نتحرك في المكان..... منذ وقت طويل خطرت لي فكرة اختراع آلة تستطيع السفر في أي اتجاه أو بُعد في الزمن والمكان.....»

ما كان يظن أن علمًا يُقال في الروايات، وهو يُغلقها وقعت عينيه على السنة الّتي نُشرت فيها لأول مرّة؛ 1895، دُهش. قام ودسَّ «آلة الزمن» أسفل جلده كتاب مكتوبٌ عليها: «كتابي رؤية الكواكب والمناظر للحسن بن الهيثم»، وفي الأسفل مكتوب: «جمع وتدقيق أحمد بن نورالدين»؛ والد أمين.

***

في الطريق إلى النافذة تأمل أمين الكواكب الّتي تدور حول الشمس، تدور في كل وقت ولا تتوقف إلّا حينما تغيب عنها الكهرباء بالضغط على زر تشغيل/ايقاف المحاكي، فيتوقف النظام الشمسي عن الدوران في سماء الغرفة، تتوقف الألة، دوّن في أوراقه سؤال سوف يطرحه على تلاميذه حينما يرجع: «ما هو الشيء الّذي يُبقي الكواكب تدور حول الشمس لملايين السنوات دون ضجر؟»

سحب طاولة، جلس فوقها، هذا الصباح بارد، ضباب خفيف يحاوط مباني الجامعة كسحابة شفافة ورقيقة، يحاول أمين اكتشاف طلابه من خلال تأملهم ومراقبتهم من وراء زجاج النافذة.

هؤلاء المبعثرين بعشوائية فوق العُشب الأخضر والمقاعد الخشبية، المخبئين في الضباب والأحلام، الوجوه البريئة، هذا الإلكترون الّذي ينتقل بين الفتيات مُرتديًا ملابس عصرية، بالتأكيد لن يكون أينشتاين، باڤو، ربما

يكون ذلك الفتى الّذي يقرأ كتابًا. يتنفسون هواء الحديقة النقي بعيدًا عن هواء القاعات المتشبع بالمعادلات والتجارب والّذي يدخل من أنفه الآن.

لفتت انتباهه فراشة ملكية تطير في زاوية الحديقة القريبة من النافذة. بعد لحظة، باتت في قبضة يد أحد الطلاب، رفع يده الّتي يسجن فيها الفراشة ناحية فتاة، ضحكت بدورها، صرخ أمين: «عاشق غبي».

ركض بسرعة ناحية الباب كمن يحاول النجاة بنفسه من زلزال قادم، عبر الممر كعداء، قفز فوق درجات السلّم أحيانًا أبتلع ثلاثة درجات مرة واحدة. وصل الحديقة، اتبع ممر أسمنتي بين عُشب الحديقة الأخضر كحصان يعبر حواجز مضمار. انقضّ على الطالب، حاول انقاذ الفراشة من يد المجرم، قال له غاضبًا: «اترك الفراشة»، توقف الموسيقي عن ضغط الأكورديون بيديه، والتف الطُلاب حول أمين، كأنه سيُقيم عرضًا سحريًا. مدّ الطالب كفه أمامه، فإذا الفراشة كأنها دخلت منطقة التفرد لثقب أسود.

قال أمين: «الكون منظم لدرجة تفوق محدودية عقولنا»، كان الفتى مصدومًا، أضاف والضباب يخرج من فمه كدخان السجائر: «ألم تسمع بتأثير الفراشة!، التغيرات البسيطة والغير ملحوظة في الكون قد تؤدى إلى نتائج كارثية، لا يُمكن تحمُّلها[25]»، لم يكن مبالغًا في ذلك.

حُق لألبرت أينشتاين ابعاد محبوبته عن عالم الفيزياء، حتمًا كان عقلها سيفسد.

***

كلّ ما عليه فعله هو التقدّم نحوها والاندهاش من الحُبّ الّذي لا يتوقف عن النمو. كان في وَرطة، ماذا تفضل؟، ما الهدية الّتي تليق بدوقة؟، الورد هو الهدية الّتي لا تحتاج معرفة امرأة كي تجيب على ذلك السؤال، كلّ النساء

25 رفة جناح فراشة فوق الصين قد تُغيّر نظام العواصف فوق نيويورك.

يعشقن الورد، الذهب، السفر، التسوق، والرجل الّذي لا يعد كلّ ما سبق أشياء تافهة.

استعد للقائها داخل حديقة عامّة، حضر وفي يده باقة من زهور التوليب الحمراء والّتي تعنى التصريح بالحُبّ، تلتف أوراق كلّ زهرة حول نفسها فتبقى منغلقة وحولها حالة من الغموض، لم يكن يُفرق بين أنواع الورود ومعانيها ولا يعرف مدلولات ألوانها، الفضل في الاختيار يُنسب إلى بائعة الورد، وحينما أخبرته بمعنى زهرة التيوليب الحمراء اعتبر ذلك من الخر افات.

حينما أبصرها انتفض جسده، تسارعت دقات قلبه وتغير لون وجهه، بدت كملكة مُنمقة تُقابل مُتشرد.

ارتبكت، استلمت الباقة، زَهَا الورد وظهر عليه فرح بالغ، فالورد يستمد جماله من أيادي النساء الجميلات ويتفتح على قدر سعادتهن. قال إليها: «الورد يتلاعب بعقول النِساء كما يتلاعب الضوء بقو انين الفيزياء، ينكسر الورد أمام فتاة جميلة وينعكس في وجهها، فهو مثل الضوء تمامًا ينكسر وينعكس».

«رائع، كلما هربنا من الفيزياء تُعيدنا إليها.»

قالت وهي تتجنب ظِلّه: «جميع قصص الحُبّ تبدأ بوردة، إنّ أردت كتابة قصّة رومانسية، فبدأ المسودة بكلمة وردة، وبعدها ستهبط تفاصيل القصّة عليك بغزارة، وحتّى الأحداث الّتي تسبق الوردة»، كانت صائغة بارعة للكلام.

سألها عن سبب تجنب ظله، ردت: «الانسان إنّ مشى فوق ظل غيره، فستصير بينهما عَداوة وربّما يصل الأمر إلى القتل»، فسار هو فوق ظلها.

من بين أغصان الشجر وأصوات زقزقات العَصافير تسلل شُعاع الشمس الذهبي، وجلس مَعهما على المَقعد الخشبي. أخرجت روايتها من الحقيبة، فتحتها وأشارت إلى أمين أنّ يبدأ القراءة بصوت مُرتفع من هنا:

»

*أول ليلة يسرق فيها الحُبّ النوم من عينيّ، ويدرك عقل قلبي أن الاعجاب قد طال عمره وصار حُبًّا. إنها ليلة ميلادي الثاني، فلكل فسيفساء كونية عهدين وميلادين، تغزلني آلهة الحُبّ الإغريقية وردة وتُعطرني بالكافور ثم تغمسني في نهر مُقدس، وتغسل قلبي بماء الورد كي أولد من جديد، روح نقية. تلك اللحظة الّتي تُشبه عَودة الحاج مغفورًا له، نزول الروح القدس على الأنقياء ليكونوا أنبياء، تلك اللحظة الباهرة الّتي لا وصف لها ولا رسم، حينما تكون روح بلا جسد، روح ترى الملائكة كالأطفال، وتطير كالعصافير.*

«

لم يفهم أمين المغزى. أغلق الرواية، وأخرج من حقيبته قطعة من الكريستال لها ثلاثة أوجه؛ كلّ وجه على هيئة مُستطيل، وقاعدتين؛ كلّ قاعدة على شكل مُثلث، سألته: «ما هذا؟»، أجاب: «منشور ثلاثي».

قالت بسرعة: «وماذا يفعل؟»

«ألم يمرّ عليكِ في كتب المدرسة اللعينة؟»

منذ الأمس وهو يعلم أنّها سترد بـ «لا»، وحضّر جوابًا: «أحيانًا أشعر أننا سنكون أفضل وأذكى بدون المدرسة.»

وضع أحد جوانب المنشور في وجه شعاع الشمس (الضوء الأبيض)، فتشتت الضوء على فُستانها إلى الألوان المكوّنة له، ألوان قوس قزح. سألته عن

امكانية تجميع أشعة الألوان مرةً أخرى وإعادة الضوء الأبيض، أجابها: «نعم، باستخدام عدسة مجمعة».

قال أمين: «قديمًا أعتقد العلماء أنّ المنشوريُضيف الألوان إلى الضوء، لكنّ نيوتن قام بتجربة بسيطة أثبت أنّ الضوء الأبيض يحوي سبعة ألوان؛ البنفسجي والنيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر، وكل ما يفعله المنشور أنّه يقسمها»، رمته بنظرة اعجاب وعشق بينما كان يُقسّم الضوء.

سألها: «هل تُحبينني؟»، هربت عينيها وراحتا تتأملان طفلين تجاوزا العاشرة بقليل يتبادلان الجلوس على خشبة مُعلقة بين حبلين مشدودين إلى عامودين من الحديد. يجلس أحدهما على الخشبة ويُمسك بالحبل جيّدًا، ويدفع الثاني الخَشبة إلى الأمام فيندفع الأول ناحية السماء ويضحك ضَحكة تغير منها المَلائكة، ضِحكة لا يُغطيها صدأ الحياة. أعاد المَشهد سارة إلى طفولتها، قامت وذهبت ناحية الأطفال.

تخلت عن الأنا العمرية. كانت تتمايل على الأرجوحة كحروف موسيقية تتمايل على المدرج الموسيقى. لم تتخلى عن طفولتها الّتي تفوح من حَركاتها و أفعالِها، فتبدو بين الأطفال أصغر منهم. يا إلهي هل يمكن لبشر أنّ يضحك هكذا؟

اقترب من أمين طفل، انسجما معًا سريعًا، كانت الأم تُر اقب وتبتسم، حضرت وقالت لأمين: «يجب أنّ تغادر الحديقة الآن، مونتغومري .....»، نادي عليها رّجل: «فريجينا، فريجنيا»، بدا وكأنه زوجها، قال أمين: «منّ أنتِ؟»، أخذت ما بدا أنّه ابنها ولبت النداء، ذهب أمين ناحية الأرجوحة، كانت سارة تنتظر عودته، قال لها: «هيا» وأخذها من يدها. اتجهت ناحية السيّارة، منعها وقال: «لا لا»، وأوقف سيّارة أجرة.

ظل مُرتبكًا داخل سيّارة الأجرة، ولم يتفوه بكلمة واحدة، سألته: «ماذا حَدث؟»، رد: «مونتغومري» وتأتأة، لم يكن يعرف ماذا يقول؟

تذكرت ما قاله لها مونتغومري في حديقة البيت: «سيتكلم عني، بالتأكيد، سيقول ما تُخبره به أوهامه».

***

«ما الجديد في الفيزياء؟»، رد أمين بابتسامته الفاترة المُعتادة على سؤال باڤو الروتيني، حاول ألا يُعير وزنًا للحقيبة الّتي في يد باڤو، تكلم مع نفسه: «إنّها الحقيبة الّتي دارت الدنيا خلفها!».

رفع باڤو رأسه إلى أعلى، استدار ناحية مبني ناسو، تكلم وهو يمشي: «أمين، الماضي يمر بأزمة ثقة، في تجربة الشق المزدوج، يخرج الإلكترون من المصدر كموجة، وفجأة نخدعه، نضع عدسات المُراقبة، الغريب أن الإلكترون يعود ويُغير الماضي ويظهر كجُسيم. شيء مُحير، هل هُناك ماضٍ حقًا؟، أمّ ما نُسميه الحاضر يحدث في نفس اللحظة بجوار الماضي والمستقبل، وحسب الأكوان المتوازية كلٌّ في كون، ويكون صَديقنا أينشتاين مُحقًا حينما قال: المؤمنين بالفيزياء يعرفون أنّ الفاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل مُجرد وهم عنيد مستمر[26]».

ظل باڤو يتكلم إلى أمين وهو يمشي، وأمين يتحدث مع نفسه: «الحقيبة مازالت مع باڤو! ماذا يعني هذا؟»، «ربما تُشبهها كثيرًا، لكنّ بالتأكيد ليست هي». في خضم ما يدور في عقل أمين؛ فتح باڤو النافذة خلفه، فاندفع الهواء، انتعش أمين، انتبه أنّه داخل مكتب باڤو، قال: «يبدو أنّك اشتريت حقيبة

---

[26] من واجبي ومن العدل اعلامكم بوجود مَدرسة أخرى تقول: «المُستقبل مُحتمل لكنّ الماضي مؤكد».

جديدة، هنيئًا للفيزياء». قال باڤودون أنّ يلتفت إلى أمين: «إنّها حقيبتي ومعي منذ ثلاث سنوات تقريبًا»، وظل يكتب. قُرعت أجراس في رأس أمين، انهار الواقع والعالم، كأن قبيلة من النمل تنخر في رأسه.

قال باڤو: «ما بك يا أمين؟، من المُفترض أنّ تكون فرحًا، توقف إطلاق النار في الشرق الأوسط، ومن المُرجح أنّ مصر ربحت الحرب، هزمت سياسيًا ثلاث دول». قام فجأة ووقف أمام أمين، صرخ وهو هائج: «من تظن نفسك؟»، قال أمين: «سيدي.....، قاطعه: «أتظن نفسك جاسوس سوفيتي!»، صرخ أكثر: «هل أنت عاقل يا أمين؟»، كان أمين مُضطربًا جدًا، وسينهار في أيّ لحظة، اصرار باڤو على الصُراخ ومُقاطعته أكَّد لأمين أنّه يتعرض لعَمليّة استفزازكي ينطق بأشياء يندم عليها.

على طريقة هوليود؛ ضرب رّجل الباب بقدمه ودخل، انضم إلى حفلة الصراخ، «أنت أحمق، «اعترف... اعترف...»، «انقذ رقبتك»، «لماذا جئت أصلًا من بلادك؟»، «هل جندك الروس في بيروت وطلبوا منك الهجرة إلى أمريكا، اعترف». بعد ساعة تقريبًا، تركوه يفتح الباب ويخرج. كانوا يأملون أنّ ينهار ويؤكد شكوكهم.

«هل أنت عاقل يا أمين؟»، ظلت كلمات باڤو تجذّ أمين. فكّر في تفخيخ الجامعة وعدم العودة إليها مرة أخرى.

***

## -الفصل الخامس-

ناول أمين سائق سيّارة الأجرة دولارًا ونزل ناحية الرصيف بين شقي الطريق، البرد شديد والثلوج تكسو الشوارع، نزل من السيّارة خلفه رّجل المُر اقبة، متوترًا؛ ر اقب أمين الشارع المُكتظ بالسيّارات الساكنة، الآن عرف الشخص الّذي يُر اقبه، صعد درجات سُلم قصير بينما تساقط الثلج فوق معطفه. دخل مطعم ياباني، أسرع رّجل المُر اقبة خلفه، فتش بعينيه الطاولات ودقق في الجالسين عليها، سأل النادل: «هل هناك مدخل آخر للمطعم غير هذا»، وأشار ناحية الباب الّذي دخل منه، رد النادل: «نعم» وأشار ناحية المدخل الثاني، فورًا هرول ناحيته، كان أمين داخل حمّام المَطعم، غادر المَطعم بعد ازاحة رّجل المُر اقبة من طريقه.

خرج ناحية المبنى الرئيسي لـ «بنك الاتحاد الدائم للادخار»؛ على قدميه اتجه ناحية مَحطة قِطار الأنفاق، خط الجادة السابعة؛ قسم IRT؛ الأزرق على خر ائط قطار الأنفاق. ركب القِطَار المُنتهي عند متنزه فان كورتلاند؛ شارع 242. العربة مُزدحمة، المقاعد مُتصلة ومتوازية ومُغطاه بالجلد الأحمر القاتم، ظل و اقفًا يُمسك القائم الّذي أمام الباب مُباشرةً ويستقبل الركاب، يُر اقب الباب الجرار، بمُجرد أن تحرك دَفع نفسه، أمسك الباب بيديه و أبقى لنفسه مسافة كافية، نزل، أُغلق الباب بعده مُباشرة، اتجه ناحية القِطَار الذاهب إلى بروكلين، دخل العربة الأخيرة، الماء ينزل على الرُكاب من فتحات تكييف الهواء، لعدم جدواها تم اعادة المراوح العاديّة فيما بعد. وفي مَحطّة «شارع كريستوفر» نزل من القِطَار قبل غلق الباب مُباشرة. خرج إلى الشارع وركب سيّارة أجرة، بعد دقائق تركها، سار على قدميه وكان يلتفت

خلفه كثيرًا، وينعطف داخل شوارع ضيقة وفارغة ويركض أحيانًا دون توقف كأنّه يُريد نهاية العالم، وقفز فوق حواجز، وبعد عشر دقائق وصل المكان المُحدد.

**

كان أمين مُتكئًا على سور حديدي خلفه مباشرةً زُجاج البناية الشاهقة وأضواء نيويورك المُذهلة.

«..... هذا ما وقع في مكتب باڤو، إنّه الوقت المناسب للحديث عن.....»

قاطعه السيد تشارلز[27] وهو ينظر في أضواء نيويورك المُتدرجة عشوائيًّا: «أنسى الأمر، كأن شيئًا لم يقع، ندبة زالت سريعًا»، أضاف: «افعل ما أخبرك به فقط، عد إلى الجامعة، تجنب باڤو تمامًا وقدم طلب لإدارة الجامعة بتغيير المُشرف على أطروحتك، أرجع السبب لما وقع في مكتب باڤو، لا شيء لديك لتُخفيه».

قال أمين: «لستُ أمريكيّ الأصل، لذا أنا محل شكّ».

«الرئيس نفسه ليس أمريكيّ الأصل، هل هو من الهنود الحمر؟»

«لماذا لا أدخل السجن وينتهي كل شيء؟»

قال السيد تشارلز بحزم: «بتُّهمة ماذا؟، وإن ظهرت التُّهمة؛ ليس ثمّة دليل عليك، توترك هو الدليل الوحيد ضدك».

لا يُريد أمين الاعتراف بالخوف، وكأنه نّقيصة: «لستُ متوترًا.....

قاطعه: «الخوف طبيعي، فأنت إنسان في النهاية، لكنّ احذر أن يشل خوفك عقلك».

---

[27] اسم حركي لرّجل استخبارات عربيّ، يُستخدم للتمويه والخداع.

«لا أقدر على مواجهة الاستخبارات السوفيتية والأمريكية معًا. خصوصًا الاستخبارات السوفيتية، لقد قابلني.....

قاطعه: «فلاديمير بوخاروف» قالها وهو يُشعل سيجارة.

ردد أمين: «بوخاروف... بوخاروف»، سأل: «هل هو مسئول الاستخبارات في السفارة السوفيتية؟»

«لا، بالتأكيد مسئول الاستخبارات في السفارة لن يُغامر ويلقاك.»

قال أمين: «أشعر أنّ السفارات الروسية في الخارج ما هي إلّا أفرع للاستخبارات السوفيتية».

«الجميع يفعلون ذلك، المُلحق العسكري في أيّ سفارة هم جواسيس دبلوماسيين. أثناء الحرب الكبرى الأولى؛ انفجر مستودع عسكري فيه ألف طن من الذخائر وخمسون طنًا من مادة «تي ان تي»، اهتزت منهاتن كأنما ضربها زلزال، وتحطم زجاج النوافذ، وتضرر تمثال الحرية، ووقعت تفجيرات مُماثلة، تدري من كان وراء تلك التفجيرات؟»، لم يترك وقتًا لأمين كي يرد، أضاف: «السفارة الألمانية هي الّتي موّلت وقدمت الدعم لعُملاء ألمان لتنفيذ التفجيرات».

ابتسم أمين وقال: «أنا أواجه السفارة السوفيتية كاملة».

قال السيد تشارلز: «أنت تواجه الاستخبارات السوفيتية، السفارات حجر في لعبة الاستخبارات»، أضاف بعد صمت: «احذر أكثر من لدغات مونتغومري».

«مونتغومري!»، وكان مُندهشًا.

«كلّ يهودي عميل مُحتمل للاستخبارات الإسرائيلية كما كلّ شيوعي عميل مُحتمل للاستخبارات السوفيتية.»

«أشكّ في قدرتي على مواجهة الجميع.»

«لا تفزع، الاستخبارات ما هي إلّا لعبة عقول، و أنت لديك عقل والكثير من الحظ الحسن. لا تهرب من مر اقبة الاستخبارات لك إلّا في حالة الضرورة، هروبك الدائم من المُر اقبة يُثير الشكّ تجاهك.»

«لم أتلقى إلّا قدر ضئيل من التدريب، ما أفعله.....

قاطعه: «تعامل كإنسان طبيعي، ليس في صالحك أنّ تبدو إليهم مُدربًا أو مُحترفًا»، أضاف بغضب: «عنيد، متهوّر، تفعل كل ما يقوله عقلك، ولا تستمع لأحد».

**

دخل السيد تشارلز غرفة مُجاورة بها عَالِم فيزياء نووية أجنبي، يبيع خُطّة للحصول على قنبلة نووية في وقت قياسي؛ شراء اليورانيوم المُخصب حتّى عشرون بالمائة من أوروبا، ثم يقوم هو وفريق بتخصيبه حتّى تسعون بالمائة بواسطة أجهزة طرد مركزي.

المطلوب من أمين مُناقشة العَالِم وتقديم تقييم أوّلي لخُطّته. جلس على مَكتب، وضع قطعة قُمَاش على فمه، لتَّمويه الصوت، ورتب الأوراق والأقلام. بينه وبين العَالِم باب خشبي مُغلق، يتبادلان الورق من خلال شق صغير في الباب، أثخن قليلًا من ورقة. بعد نصف ساعة تقريبًا امتلئ ورق بمُعادلات ورسومات. وطوال المُناقشة كان السيد تشارلز يُر اقب تعبيرات وجه عَالِم الفيزياء. بعد خمس ساعات كاملة انصرف العَالِم. جلس أمين يكتب تقرير، راجع المُعادلات والرسومات مرّات، في التقرير؛ أَكَّد الحاجة إلى عدد كبير من أجهزة الطرد المركزي، وشَكَّك في امكانية الحصول عليها بالسهولة الّتي يدعيها الفيزيائي، كمّا أنّ تجهيز اليورانيوم لصنع قنبلة نووية سيستغرق عامين على الأقل.

قال أمين: «أخشى أنّ يكون دُمية مُسَيَّرة، خلفها الموساد[28]، لجَسّ النوايا تجاه امتلاك سلاح نووي، وأيضًا لوضع قائمة بأسماء علماء الفيزياء النووية الّذين يخدمون الدولة، وتقييم قُدرتهم على صنع سلاح نووي».

سكت السيد تشارلز، ثم قال: «انتبه إلى خطواتك، أؤكد احذر مونتغومري، إلى اللقاء»، ابتسم وصافَح أمين.

***

شعرت سارة بأنّها مُطاردة، مُلاحقة، استعدت بالخوف. فجأة خرج الرّجل من الظلام، ظل الاثنين صامتين لدقيقة، اعتذر مونتغومري، لم يقصد اخافتها، قال: «اطلبي من أمين الذهاب إلى هذا الطبيب» وأعطاها قُصاصة ورق فيها عنوان، لم تأخذها مُباشرةً، هناك تأرجح وحيرة. حاولت فتح فمها فقاطعها: «هذا الخوف على أمين لن يؤتي نتائج، الأفضل فعل شيء».

قبلت الكلام لمعقوليته، رغم إحساسها بشيء ما. قالت: «انتظر، أودّ طرح مزيد من الأسئلة».

«سنتقابل بالتأكيد، لم ينتهي الكلام بعد»، قالها وهو يرحل.

***

انفرطت حبات اللغز أكثر أمام سارة حينما أخبرها أمين بشيء درامي: «الاستخبارات الأمريكية وعدوتها السوفيتية يُراقباني، وربما انضمت الاستخبارات الإسرائيلية إلى اللعبة»، يُهوّل نفسه وكأنه أهم رّجل في العالم؛ لا يوجد مثله، أصابها الذهول، وأنصتت إلى صوت الريح، لا يُقدّم دليلًا على كلامه، ولا يُمكن لأيّ كائن على وجه الأرض أن يحتفظ بعقله حينما يعلم أن أقوى جهازي استخبارات على الأرض يُراقبانه، قالت لنفسها: «مَريض نفسي، عقله يُلفّق الحكايات، لا يوجد حل آخر ملائم»، لم تفصح له عما

[28] جهاز الاستخبارات الإسرائيلي.

تُفكّر فيه. وقع ذلك فوق جبل الجنوب، بينما ينظران إلى أسفل؛ إلى البيوت المرصوصة والّتي تصنع ضاحية ملبورن.

**

من طريق جانبي دخلت سيّارة خلف سيّارة أمين واستمرت خلفه، ظل يُر اقبها من خلال مرآة المُنتصف (لم يكن هناك مَرَاءٍ على الأجناب) وسارة تُر اقب حركات عينيّه، قالت: «سأستدير لأرى السيّارة الّتي تُرقبك»، طلب منها ألّا تفعل، خطفت رأسها واستدارت، دققت النظر في العجوز قائد السيّارة، عَرفته فأهل نوتلي يعرفون بعضهم، كان العجوز عائدًا إلى بيته في نوتلي. عاد عقلها إلى الوراء؛ إلى حديث مونتغومري في حديقة البيت وكلام أمين في سيّارة الأجرة.

وهي تودع أمين عند الباب شعرت بالشفقة عليه. للمرّة الأولى طلبت منه مُراجعة طبيب نفسي.

«هل تظنين أني مَريض نفسي.»

قالت باهتمام: «لا طبعًا، لكنّ تؤرقك ضغوط وأعباء واضطر ابات نفسية كثيرة، قد تُخففها زيارة طبيب نفسي، أعرف طبيب نفسي ماهر في عمله، سأوفّر لك موعدًا ونذهب معًا».

كان أمين يخشى غرفة الطبيب النفسي، فقد يُضطر إلى البوح بأسرار عن حقيبة باقو لا يجب أن تُغادره، فحسب دماغه، لقد أدى عملًا خلف خطوط التاريخ؛ ويجب أن يظل ما فعله جزءًا من التاريخ السرِّيّ.

«حينما أرى نفسي اثنين، وأسمع أصوات غير موجودة، سأذهب إلى طبيب نفسي.»

قالت: «سأظل أطلب منك ذلك».

سألته بوضوح: «هل سرقت حقيبة.....»، ودت قول باڤو لكنّها لم تتذكر الاسم فأكملت: «أستاذك بالجامعة».

هنا تذكر أمين كلمات الرجل الأصلع: «أمريكية، أظنها مدسوسة عليك من الاستخبارات الأمريكية وتكيد لك» ..... «جيّد، لقد نجحت الأمريكية في السيطرة عليك».

في البيت؛ شرب أمين «هايج أند هايج»، أمضى الليلة داخل دوامة الحيرة، واخترع عقله تصوَّرات للأحداث والوقائع الغائبة عنه.

أمّا هي فأخذت تُفكّر فيه وتتألم للألم الّذى يشعر به، صلت إلى الرب أنّ ينتشل العربيّ من وهم المؤامرة والمُراقبة سريعًا، بالنسبة إليها تفسّخت الصورة الّتي رسمتها إليه في عقلها، أصبح كل ما يقوله مشكوكٌ فيه، وقد يتوهم أمورًا لا تحدث.

***

العظيم أبي،

سُكون هذه الليلة انتظم في سطورنوتة موسيقية، لا شيء مؤكد الليلة سوى القهوة وحب أمّي و«أعواد الثقاب المُشتعلة».

أهنئك بعيد ميلادك الخمسون، كنتُ أود أنّ أكون بجانبك في تلك اللحظة، ما زلتُ أتذكر كلامك لي: «اذهب أنت للدراسة، و أنا سأتدبر أمري»، وقتها كان حزمك مُخيفًا. أرسلتني إلى الولايات المتحدة ومعي أحلام وطموح وخطط لدراسة «أعواد الثقاب المُشتعلة»، وبعد كلّ هذه السنوات ما زلتُ دخيلًا على المكان وغريبًا مهما حاولت أنّ أبدو أمريكيًّا من الخارج، وفي النهاية وقعتُ في حُب أمريكية، اسمها سارة، كاتبة مثلك يا أبي، لكنّها تكتب روايات لعينة، على أيّة حال، هي علامة من اللّه العزيز. أعلم أنك لم ترسلني من أجل الحُبّ، لكنّ هذا ما حدث وليس الأمر بيدي.

في الشهرين الأخيرين فقط نشرتُ ثلاثة أبحاث في دوريات علمية مرموقة، جميعها عن «سلوكيات الأجسام دون الذرية»، وهذه الأيام تُمزق رأسي فكرة لعينة لكنّها معقولة، تنزع مني الراحة الفكرية فأصير وكأني أحمل خطايا العالم. هل أنا في المسار الصحيح؟، أصبحتُ جزءًا من الغرب وبحثه العلمي والّذي في النهاية يُترجم إلى أسلحة وطائرات حربية وقنابل، تقع في يد إسرائيل فتقتل المزيد من العرب وتلتهم المزيد من أراضينا، ليس هناك أحط من هذا، هل ستفخر أمي بي؟

هل أعود؟، أجبني في خطابك القادم.

من فضلك رد ليّ هذا الخطاب مرةً أخرى داخل خطابك القادم، رده داخل ظرفه؛ كما استملته من ساعي البريد. أشكرك، وربّما تراني بجانب يوسف قريبًا.

ابنك غير المُخلص، أمين عز الدين

نيوجيرسي

***

تلكأت الإدارة في قبول طلب أمين بتغيير المُشرف على اطروحته، وطالبته بالحصول على موافقة خطيّة من باڤو، ونُصح: «شعبية باڤو جارفة، وإذا ربحت سخطه فلن يقبلك أيّ بروفيسور آخر».

**

»

طلابي أريد أن أخبركم بسر؛ تجربة الشق المزدوج عالقة دومًا في رأسي، في البداية يتصرف الإلكترون كموجة، وعند وضع عدسات المُراقبة، يتصرف كجُسيم، وعند إزالة العدسات يعود للتصرف كموجة. لا أقنع بـ ' تفسير

كوبنهاجن: «تجربة القياس تؤثر في النظام»، لكنّ الأشياء تُقرر تغيير طبيعتها حينما تعرف أنّ الإنسان يُراقبها، أيّ مجرد نظر الإنسان إلى الكون، يُجبره على تغيير طبيعته، ماذا لو كان الإنسان غائبًا؟، غير موجود، سيظل الإلكترون يتصرف كموجة، لن يكون هناك ألوان، بل ضوء بأطوال موجية مُختلفة، سيكون الكون مُختلف عما نعرفه، وربما لن يكون هُناك كون من أصله، أيّ بدون العقل لا يوجد كوننا، نحن مُشاركين في وجود الأشياء، وبالتالي يكون نيلزبور مُحقًا حينما قال: القمر غير موجود حينما لا ننظر إليه.

عندما نرصد شيء ما ونقوم بقياسه، فإن ذاك الشيء (الواقع) لا يكون موجودًا (حقيقة)، وبطريقة ما لا نعلمها، تجربة الرصد أو الوعي تجلب هذا الواقع إلى الوجود، هل لو اختلف الوعي يتغير الواقع؟، نظرية هيو إيفيرت؛ الأكوان المتوازية تُفسر هذا، الواقع موجود بجميع الاحتمالات، كل احتمال في كون، وحينما نرصد الواقع فإننا نرصد احتمالًا ونجعله حقيقة. أيّ الإنسان يختار بنفسه الحقيقة.

«

كانت القاعة تعج بطلاب يجلسون فوق مقاعد مُنفصلة، كل مقعد مزود بمسند لليد اليمنى والورق، يتكلم أمين وفي يده أصبع طَبشُور أبيض وخلفه لوح الكتابة الأسود مرسومٌ عليه تجربة الشق المزدوج. وفجأة؛ اقتحم القاعة طُلاب، تدفعهم الكراهيّة والعنصرية، حسب تحقيق البوليس المشكوك فيه: «فريق منهم غاضبون من انتصار مصر على بريطانيا العظمى وفرنسا وإسرائيل في حرب السويس؛ سياسيًّا دون طلقة واحدة، وفريق آخر غاضبون من سياسة عبد الناصر تجاه الاحتلال اليهودي لفلسطين»، معهم طُلاب حقًا مُتأثرين بالزيّف الّذي تنشره آلة اليهود الإعلامية ضد مصر وعبد الناصر؛ ينوي اشعال محرقة بأجساد اليهود في الشرق الأوسط كما فعل هتلر.

فرّق الهجانة زملائهم بالقوة، ظل أمين في مَكانه بجوار السبورة السوداء لفترة وجيزة، ردد المُهاجمين شعارات مُعادية للعرب، «أولاد الجارية[29]»، «يغتصبون الجمال»، لم يستطيع أمين الاحتمال وفشل في الحفاظ على عقله، هجم على أحدهم، صرخ فيه: «اخرس»، وحطم فمه، دخل في مَعركة غير مُتكافئة مع المُهاجمين، استقبل جسده لكمات وركلات وتمّ سحله وجرّه خارج القاعة حتّى أصبح وعيه في أدنى حالة، ولم يكونوا يودّون قتله علانيةً. في نفس اليوم أُنزل العلم البريطاني من فوق مبني هيئة قناة السويس بمدينة بورسعيد[30].

وصفت صحيفة محلية ما حدث في جامعة برنسيتون بالجريمة الشنيعة والأكثر عدوانية في تاريخ الجامعة، وشبهتها بما حدث في الخامس من ديسمبر/كانون الأول 1930، أثناء عرض فيلم «كل شيء هادئ في الميدان الغربي» في قاعة موتسارت في برلين، توافد الناس لرؤية أحد أحدث أفلام هوليود، وأثناء العرض حدث تحول مفاجئ في الأحداث، قاد مجموعة من النازيين هجومًا ضد الفيلم والجمهور، هتفوا «فيلم يهودي»، أغلقت أجهزة العرض، ألقوا القنابل النتنة من الشُرفة، ورشوا مسحوق العطس في الهواء وأطلقوا الفئران البيضاء على المسرح، وضربوا الجمهور بوحشية.

***

غرفة أمين في المُستشفى سجن، الوقت داخلها لا يمرّ، كدمات تُغطي جسده، تؤلمه كأنما ينهشها النّمل. جلست سارة على طرف السَرِير، أشار ناحية مَقعد في ركن الغرفة وقال: «هذا المَقعد، سيكون أكثر راحة»، ردت: «القرب منك راحة»، أشار ناحية المصباح في السقف، سألته ماذا تُريد، لم يرد.

---

[29] يقصدون أمّ العرب، السيدة هاجر المصرية، كانت جارية في بيت أبو الأنبياء إبراهيم، وتزوجها وأنجبا النبي إسماعيل؛ أبو العرب.

[30] مدينة مصرية، تقع على ساحل البحر المتوسط والمدخل الشمالي لقناة السويس.

قامت وأغلقت باب الغرفة، أخذت أمين إلى الشُرفة، كانوا في الطابق الثالث، وجميع الغرف تطل على مدخل المستشفى والحديقة، طلب أمين منها اغلاق باب الشُرفة.

ما جذب سارة إليه؛ حياته المُخلصة للفيزياء، يعيش منعزلًا في جزيرتها، ولذا يبدو متناقضًا وغريبًا، قالت وهي تبتسم: «يُمكنني قبول أن تشاركني فيك الفيزياء، لكني لا أقبل امرأة». أمّا هو فكان مُتلهّفًا للقائها، ما شده إليها أنها لا تعرف شيء عن الفيزياء، أيّ الفيزياء شاركته في اختيار فتاة أحلامه.

كان الفستان يتناغم مع جسدها كما يناغم العود الكمان، والنجوم تتراص كالجواهر في تاج السّماوات، قالت إليه أخبارًا جيّدة كان يعرفها: «القوات الإنجليزية والفرنسية تنسحبان من بورسعيد».

سألها أمين: «وإسرائيل؟»

«خلال أيام.»

سألها: «أتعرفين، لماذا السماء في اللّيل مُظلمة رغم هذا العدد الهائل من النجوم؟»

«أنت تعرف تاريخ الكون كاملًا.»

«كل شخص يدعي مَعرفة تاريخ صحيح أو كامل للكون مخطئ، لدينا إجابات مؤقتة لكنّها أفضل من لا شيء، وفي الثلاثينات كانوا ينظرون إلى علم الكونيات على أنّه تنجيم، شيء يحتمل الصواب والخطأ.»

سألها: «هل تأذى أحد من طلابي؟»

«لا، وقد عادت الأمور إلى طبيعتها في الجامعة.»

«شيء متوقع»، قال أمين.

قالت سارة: «الأغرب أن مقالًا في مجلة أخبار الفيزياء زيّف الحقيقة، وصفهم بأنهم طلاب ثوار، غاضبون لأنك تُدرس وتؤمن بالغرائبيات والأشياء غير المنطقية في عالم الفيزياء، كإيمانك بانقسام الناس عند كل حَدث».

أضافت: «عدد من المُهاجمين صرّحوا بالجريمة وتفاخروا، لقد تتبعتُ القضيَّة وزودتُ البوليس بمعلومات وأدلة، لكنّ لم يتحرك رّجل بوليس واحد، كل شيء كان شكليًا. أشعر بالعار؛ ذلك يحدث في بلدي!»

«زارني رّجل وطلب تسوّية القضيَّة.»

أضاف العربيّ: «البوليس الأمريكي لن يوفر ليّ الحماية؛ لذا أنوي حمل سلاح دائمًا، يجب أنّ أحمي نفسي بيديّ»، أضاف بحزم: «لن أتردَّد في إطلاق النار على أيّ شخص يقترب مني، ذلك حقّي في الدفاع عن نفسي».

«تريّث كثيرًا، السلاح ذاته ليس رخصة تُعطيك الحقّ في القتل، لست إيطاليًّا.» (تقصد ليس عضوًا في المافيا)

«وما الفرق بين أجهزة الاستخبارات والمافيا!، هل تظنين أن جميع أعمال الاستخبارات شرعيّة!»

كتمت في صدرها، كانت على وشك القول: «أوه، أما زلت تُكرر هذا الهِراء!».

ظلت بجواره إلى بعد مُنتصف اللّيل، وحينما يكونان معًا؛ يجري الزمن سريعًا، يمر بسرعة ساعة في الثانية الواحدة. قال: «حينما تجلس أمام فتاه جميلة يمر الوقت بسرعة، وإن كانت قبيحة لا يمر». ردت: «لقد أصبحت فليسوفًا».

«لا، أينشتاين قال ذلك، حينما شرح نظريته النسبية الـ.....»

قاطعته: «حينما تجلس مع فتاة جميلة، تحدث عن نفسك فقط».

قبل أن تُغادر سألته عن أيّ شيء يُمكن أن تفعله من أجله.

***

في الصباح التالي، فتحت سارة باب شَقّة أمين، استقبلتها فوضى موزعة في كل الأرجاء، صُدمت، الأثاث مُحطم، أزعجتها الفوضى وكأنها تنشر ضوضاء تغزو الرأس، لفتت نظرها صورة الشابّة على الحائط، وقفت أمامها ثم توجهت ناحية الدولاب لإحضار بعض الملابس، فكرّت أنّ البوليس فتشت البيت بينما أمين في المُستشفى، لكنّ لماذا يُفتش البوليس بيته، وبهذه الطريقة؟

نظفت المِعطف بفرشاة ليّنة، أخذت تمسح الحقيبة من الداخل بقطعة قماش مبلولة، تعثرت بشيء أسفل القُماش، ضغطت المنطقة حوله فبرز، دلكته بأصبعها، أدخلت الحقيبة في رأسها وضغطت مرّة أخرى من الخارج. أحضرت مقص، قصت الحقيبة واستخرجت جهاز التنصت. بحماسة شديدة بحث عن أدوات مُراقبة أخرى، فتشت الهاتف وتتبعت السلك الرابط بينه وبين عُقدَة الشارع، وجدته يتفرع على الجدار الخارجي للشَقّة إلى فرعين، أحدهما يدخل شَقّة مُجاورة. عادت إلى الشَقّة؛ نظرت في الفوضى، قالت بصوت ضعيف: «بالتأكيد صنعها مُفتشي جهاز استخبارات، يشكون في أدق التفاصيل»، «مونتغومري الحقير الكذاب، لقد سقطتُ ضحيته»، كاد أنّ يورّطها في عَمَليّة سرِّيّة قذرة.

ضغطت زرّ جرس الشَقّة المجاورة فتأوه، أوجعته مرة أخري، سمعت صوت من خلف الباب، سألها: «من؟»، قالت إنها تُريد شَقّة د. أمين، أخبرها: «الشَقّة المجاورة»، كل هذا من خلف الباب وكان واضحًا طَمس الرجل فمه، لإخفاء صوته الحقيقي.

تبخرت كُليًّا من رأسها فكرة مرض أمين النفسي، تطلّب تصديقه دليل ماديّ، تعثرت به اليوم، قالت لنفسها: «أمين لا يتوهم المُر اقبة، سنواجهان معًا أوقات عصيبة». في ذات الوقت كان أمين في المُستشفى يتمرّن على إطلاق النار بمُسدس «بيريتا ام» فارغ.

نظفت الشَقّة، لمت زجاج «هايج أند هايج» المكسور، رتبت الفوضى لكنّها تركت الأشياء الهامة في مَكانها كالورق.

اشترت مسامير وشاكوش وغِراء وعادت إلى الشَقّة وأصلحت ما يُمكن إصلاحه. أمسكت دمية شيرلي، كبست القطن داخلها، وبالإبرة والخيط الأبيض لمت شمل قماشها المُمزق، بالتأكيد لم ترجع الدُمية كما اشتراها أمين. وكما طلب أمين منها، فتحت صندوق البريد في مدخل العمارة بالمفتاح، رقم الشَقّة منقوش على الخزينة، يرقد داخلها فو اتير وخطابين؛ أحدهما من صيدا والآخر من «لجنة التحقيق في النشاط المُعادي لأمريكا»، وقد حُدد موعدًا لمثول أمين أمام اللجنة.

***

قالت سارة: «رَّصاصة حقيرة تستطيع اقتلاع إنسان من حقل الحياة، لذا عليك أثناء عدم إطلاق النار رفع فوهة المُسدس إلى أعلى»، وجه أمين المُسدس ناحيتها، سريعًا صنعت مسُدسًا بأصابعها، وأطلقت النار بفمها، قال: «أرق رَّصاصة على وجه الأرض، تقتل القلب مُباشرة»، قالت مع ابتسامة رقيقة: «من المهارات الهامّة في إطلاق النار؛ الضغط على الزناد في الوقت المُناسب».

«لماذا تعلمتي إطلاق النار؟»

«أبطال رواياتي، أحدهم أخبرني أنه يُريد إطلاق النار؛ تعلمت ثم علمته، أرد أنّ يكون رّجل عصابات منذ البداية، إنهم يتحكّمون في عواطفي، وأجد الراحة في الحديث مَعهم، يجعلوني أفرح و أبكي.»

«إنها رواية واحدة.»

«نعم، ولكنّ كلّ شخص فيها يُقيم رواية»، أضافت: «نشرت ليّ جرائد نيويورك قصّة طويلة مُتسلسلة والعديد من القصّص القصيرة».

سألها: «ماذا عن الطبيب النفسي الّذي طلبتي مني زيارته؟»

ارتكبت وقالت: «لا داعي لزيارة أيّ طبيب نفسي».

شعر أمين بغرابة، لماذا تراجعت عن شيء ألحت فيه؟

سألها: «ماذا وجدتي داخل صندوق البريد؟»

قالت: «وجدتُ خطاب من صيدا»، وأخرجت الخطاب من حقيبتها، لم تُخبره بشأن الخطاب الثاني.

على الفورأخذ الخطاب وفتحه، وجد داخله أخرخطاب أرسله إلى أبيه، وقد قال إليه داخل الخطاب: «من فضلك رد ليّ هذا الخطاب مرةً أخرى داخل خطابك القادم، رده داخل ظرفه؛ كما استملته من ساعي البريد».

يعلم أمين أنّ خطاباته يتم فتحها قبل أنّ تُغادر أمريكا، ويتم قرأتها وربما مسحها بمواد كيميائية لاكتشاف ربّما كلمات مُختفية ومكتوبة بحبر سرّيّ.

فتح الظَّرف وأخذ يشم الخطاب، وجد رائحة غريبة عالقة به.

قال إلى سارة: «أين الأظرف؟»

أخرجت سارة من حقيبتها نوع من الأظرف اعتاد أمين وضع الخطابات داخله وارسالها. رتب أمين الأظرف فوق بعضها، كانت متساوية لدرجة أنّه لم يظهر ظرف خلف الآخر، كأنهم قطعة واحدة. وضع الظَّرف القادم من

صيدا فوق الأظرُف، فظهر أنّه قصير بطريقة غير مُلفته، أيّ تم قص جزء منه.

بطريقة ذكية تُفتح خطاباته على ثلاث مراحل: الأولى؛ فتح نافذة، يتم قص أقل من نصف ملي متر من إحدى جانبي الظَّرف القصيرين، وكي لا تتأذى ورقة الخطاب؛ يجب التأكد أولًا أنّها ترقد في جانب الظَّرف الآخر مع الطو ابع البريدية. المرحلة الثانية؛ يتم استخراج الخطاب وقر أته واختبار الأسطر المُختفية والتقاط صورة له، ثم يُدفع الخطاب داخل الظَّرف من الجانب المفتوح، حينئذٍ تتقدّم المرحلة الثالثة؛ وهي غلق النافذة الّتي تمّ فتحها، يتم ثني نصف ملي متر تقريبًا إلى الداخل ووضع مادة لاصقة قوّية بينهما، ويُضغط عليها جيّدًا. يتم ذلك بطريقة احتر افية، يعود الظَّرف كما كان، لكنّه يفقد حوالي ملي متر لا يتم مُلاحظته.

**

كان ممر غُرف المُستشفى فسيح وفارغ، والأبواب مدهونة باللون الأبيض، ومَصابيح مُضيئة تتدلى من السقف، نادى رّجل: «أنسة سارة»، رَنَّ صوته. التفت إليه، ردت: «نعم»، تقدّم نحوها، مد يده للمصافحة، إنه مونتغومري، في ذات الوقت هناك فتاة قادمة ترتدي زي المُمرضات. رفضت سارة مُصافحته، وقالت بجفاء: «ماذا تُريد مني؟»، تذكرت شيء وقالت: «ها، أمين في غرفته تعالى معي». رد عليها: «ما كان ليسمح لي، يظنني عدو، اللعينة الأوهام الاضطهادية»، سخرت منه بابتسامة، وقالت: «لقد عرفتُ كلّ شيء»، سلبت منه فرصة الرد، أكملت: «لا تحاول خداعي مرّة أخرى، و ابتعد عن طريقي». قرأ مونتغومري عقلها جيّدًا، واختار سلاح الإرهاب.

تفاجأت حينما سد طريقها وأخرج مُسدس، هزه وقال: «رَّصاصة حقيرة تستطيع اقتلاع إنسان من حقل الحياة»، انتظر أنّ ترتعش وتتوسل إليه، فهمت ما تُلمّح إليه عينيه الحادّتين؛ كان يتجسّس عليهما في الغرفة، قالت:

«يُطلقها إنسان حقير»، وهذا أبشع ما عندها، أشارت ناحية النافذة وتهكَّمت: «من هنا إلى الخلود»[31]. رحلت؛ قتلت اللقاء المفروض عليها بسرعة. لم تكذب وتناور وتتفادى الاصطدام وعليها أنّ تأخذ حذرها من السفّاح. للأسف؛ لا تعرف أخلاق الاستخبارات.

***

في اليوم التالي حضرت إلى المُستشفى، بالكاد تقدر على جرّ حقيبة كبيرة.

سألها أمين: «ما هذا؟»

قالت: «هذا ما سوف أتركه حينما أموت».

طلبت منه القاء نظرة عليها، الحقيبة مُزدحمة بيوميات وأوراق مكتوبة بخط اليد وأخرى منقورة على الألة الكاتبة، مسودات قصّص قصيرة وروايات ناقصة. طلبت منه قراءة أوراقها، وإنّ ماتت ينشر ما يصلح منها للنشر، وفي لحظة مؤثرة قالت: «أكثر ما يُقلق الكاتب؛ هو أنّ تموت معه مشاريعه الكتابية، يترك خلفه قصّص في الأدراج غير مُكتملة البناء، تنتظر أنّ يموّلها بالأحداث، فيها شخصيّات توقفت حياتهم بموته، دخلوا في غيبوبة دون مَرض؛ يلعنونه وينتظرون نهايتهم. فالكاتب كلّ يوم يقع في عقله بشائر قصّة جديدة يوّد حكايتها للناس وبالتأكيد سيموت دون أنّ يُكمل واحدة أو أكثر».

قال: «بيتي غير آمن على الإطلاق».

قالت: «ولكنك تستطيع حمايتها أفضل مني»، حينها ظهر التأثر في عينيّ أمين.

***

[31] فيلم عُرض عام 1953 من بطولة مونتغومري كليفت.

## -الفصل السادس-

هُناك سيّارة تسير فوق خطوات سيّارتهما، أوقفت سارة السيّارة أمام مدخل البِناية الّتي يَقطُن فيها أمين، وتوقفت ما يُعتقد أنّها سيّارة مُراقبة خلفهما على بعد أمتار، في الناحية الأخرى من الشارع؛ رّجل وامرأة يُناهزان الستين عامًا، حاول الرّجل تنبيه أمين؛ كن حذرًا. نزل الأخير من السيّارة ولكنّ سارة مازالت فوق مَقعد السائق، على الفور قفز رّجلين من البابين الخلفيين للسيّارة الّتي خلفهما، مُسلّحين، على حين غرة أطلقا النار بعشوائية ناحية أمين، كأنها حرب، ارتجت الأرض، روّعا المارة، ابتعدوا. هجم أمين على بوّابة البناية، ألهمه الله الوقت المُناسب، احتمى بالحائط، جعله بينه وبين الرَّصاص، ألصق جسده به، أخرج ذراعه الأيمن ووجه المُسدس ناحية الرّجلين وأخذ يُطلق النار دون أنّ ينظر، كاد المُسدس أن يسقط من يده، في الناحية الأخرى من الشارع، اختفت المرأة وأطلق الرّجل الرَّصاص ناحية المُهاجمين، أصاب أحدهما في ذراعه، صرخ وسقط المُسدس ونزّ دمًا، اعترض الدخيل خُطّة الاغتيال وعرقلها، كان صوت تبادل الرَّصاص مُزعج، أصبح المُهاجمين في وَرطة، تفرقا ولم يتأكدا من نجاح المَهمّة، في ذات الوقت؛ مُحرّك سيّارة سارة مازال يعمل، هشم رَّصاص الرّجلين نوافذ السيّارة الخلفية، لم تكن خائفة، عاهدته في نفسها على البقاء بجانبه بملء ارادتها وهي على يقين أنّ المخاطر ستُحاصرهما، ثم إنها لم تكن لتُفرّط في تلك القصّة المحبوكة جيّدًا، المُثيرة والمشوقة لأن حياة البطل دائمًا على الحافة. قادت السيّارة إلى الوراء، اندهش قائد سيّارة المُراقبة، دخل المُهاجمين

السيّارة من البابين الخلفيين، وانطلقت مُبتعدة عن مَسرح الجريمة. اصطدمت سيّارة سارة بالرصيف، صرخت: «اللعنة عليكم».

مرّت سيّارة القتلة كالعاصفة بالقرب من باب سيّارتها، بدون لوحة أرقام، سهّل الهرب خلو الشارع، انتظرت حتّى ابتلع الشارع سيّارة القتلة، وهرعت إلى داخل البناية، التقطت أنفاسها واحتضنها أمين، انتهت الحرب دون خسائر، لكنّ فعلًا هل هناك حرب بلا خسائر؟

فتح أمين حقيبة السيّارة وأخرج «حقيبة الكتابة».

**

وضع دمية شارلي فوق حقيبة الكتابة، شكر سارة على اصلاح شقته المتواضعة، واستضافها في الشُرفة، فكت حزام الوسط فأصبح الفستان فضفاض وأكثر راحة.

«مجموعة من الهواة، يريدون قتلك»، قالت سارة.

«هذه رسالة تحذير.»

«منّ يملك اصدار أمر قتل إنسان؟»

قال أمين: «القتل جزء من عمل أجهزة الاستخبارات الرسمي والقانوني».

«لا فائدة تعود عليهم من قتلك.»

«أكثر من ستين مليون إنسان قتلوا في الحرب الكبرى الثانية، ما الفائدة من قتل كلّ هذا العدد من الناس؟»، في ذات الوقت هبّ هواء قاسي.

«لطالما سألتُ نفسي ما فائدة كلّ هذا العتاد العسكري وهذا الكمّ من القنابل النووية طالما لا أحد يُريد الحرب؟، بالتأكيد هناك معتوهين ومرضى

نفسيين يطربون لصوت المدافع ورؤية القتلى، المأساة والمؤسف أنّهم أصحاب الكلمة على الأرض.»

كانت تُعطي ظهرها إلى الأنوار الّتي تأتي من نقاط صغيرة في السّماء، وتكتب مسودة روايتها التالية في كراس مفتوح إلى أعلى، سألها: «هل تودين رؤية الماضي؟، تعجبت فما من أحد يقدر على رؤية الماضي، لقد انتهى. قام وحملها بالمقعد وأدارهما ناحية النجوم وقال: «حينما نرى نجم في السّماء، في الحقيقة نحنُ نرى الضوء الّذي ارتحل منه منذ آلاف السنين ليصلنا، نرى ماضيه لا حاضره، قد يكون الآن قد انفجر ومات أو رحل بعيدًا عن مَكانه. ولو إنّ هناك حضارة عاقلة على كوكب بعيد، تُراقبنا بتلسكوب الآن، فإنهم سيرون الماضي السحيق؛ الديناصورات والانسان البدائي يصنع النار بالحجارة، ولو كانت أبعد، سيرون الأرض جنة خالية». طلبت منه الصمت وأخذت تكتب. قال لها: «أنتِ لا تكلين من الكتابة»، أوقفت القلم وقالت: «أنا أكتب الحياة، سأتوقف عن الكتابة حينما أتوقف عن الحياة ويموت الشبح المُزعج بداخلي»، وردت السؤال إليه: «و أنت مثل جاليليو لا تكلّ من تأمل سّماء اللّيل».

«فيها كل شيء.»

حوّل وجهه عن النجوم، نظر في وجهها وقال: «تأمل النجوم يضئ خلايا الحكمة في العقل»، أضاف: «وجهكِ والسّماء مصدر للإلهام»، هربت عينيها داخل الشَقّة وقالت: «الفوضى في بيتك مُلهمة الآن أكثر، السّماء لن تموت». قال بتعجب: «ماذا يُلهم فيها؟»

سألته: «أين الله؟»

«في كل مَكان.»

«أيضًا الوحي في كل مَكان. كلّ مَكان؛ كلّ شيء فيه روح غير مرئية، بمجرد أنّ ينظر الكاتب إليها، تضخ في عقله أفكار ومعانٍ، تُلهمه.»

قال: «أظن كتابة الروايات أمر بسيط إلى حد التفاهة».

اغتاظت، وقالت: «الكتابة بُكاء بالحبر؛ وسواس دائم وجميل؛ حمل ثقيل ينزعه الكاتب من عقله ويرميه في بئر الورق».

أضافت: «أحذرك، عشق كاتبة كعشق شعلة نار، يجب أن تكون كأبطال رواياتها؛ رومانسي وشاعر وفيلسوف وأحيانًا مُهرج، متصوف في محرابها وزاهد في غيرها. لكنّ الكاتبة العاقلة تعلم أن أبطال رواياتها من حبر، إنّ غادروا الورق إلى مسرح الحياة قد لا يجيدون التمثيل ويصبحون مثل كل الرجال. هم صنيعة الكاتب ومرايا لدواخله».

أضافت: «لقد دفعني حُبك داخل رواية مُثيرة، يجب أن نبقى على حذر شديد، ونعرف أين نضع أقدامنا. الخوف يقتل أيضًا، أخشى العودة إلى نوتلي الآن، أشعر أن أقدامًا خلفي دومًا، وأني كطفل يضع يديه فوق عينيه كي لا يره أحد. أحتاجُ إليك، لا لضعفٍ ولكنها القوة حينما أحتاجُ إليك».

«يُمكنكِ اعتباري حارسك الشّخصيّ.»

قام أمين وأحضر رواية سارة «طائرة ورقية لطرد الأشباح»، استلقت على الأريكة وطلبت منه أن يقرأ من الصفحة الخامسة والسبعون، أوقد ضوء الأباجورة، فر الورق حتّى وصل، أخذ يقرأ بصوت مُرتفع:

»

*جذبني للرقص على إيقاعاته السريعة حتّى صرتُ بين أصابعه يتحكّم في بيسر، أبعدني وقربني بين يديه، دفعني ثمّ ألتقطني على مَهل حتّى ترشح العرق مِن جبيني، لم يترك لي فرصة كي أستريح و أفكر. راقصني حتّى نسيتُ نفسي وسقطت عن ظهر الزمن، وعلقت روحي مع يديّ على كتفيه، أرقص حافية من كل شيء إلّا الحُبّ. أفسح لنفسه مكانًا في قلبي، وضع على خدي قبلة تمنيتها وما حَدثت. تركني متكئة على حائط التعلق به، هائمة، مُبتسمة، غَارقة في بحور الشوق، تفوح مني رائحة عِشق ذكية لا تخطئها عين ونظرات اعجاب فاضحة مأخوذة بنشوة الأيام الأولى في عمر الحُبّ، وتمنيتُ ألّا أستيقظ من هذا الحلم وأن ترافقني هذه الفرحة طول عمري. قال لي مرّة: يُحكى أن هذه الوردة أغلقت ورقاتها ونامت على قارعة زقاق داخل بستان في بلاد الله الواسعة، رأت حلم؛ إن لمستها يداكِ ستكون الأجمل في الكون، ساقها الله إليّ عندما كانت تبحث عنكِ.....*

»

أخذت الأحداث سارة، كانت تلبس دور البطلة، تعيش حكايتها وتُحارب أعدائها، وترسم الكلمات وقائع، علّق أمين قائلًا: «روايتك كمذاق الأطعمة المُعلبة».

اقتطفها من الرواية، قالت بعفوية: «غبي»، وتحرك لسانها دون صوت، قالت إليه: «أؤمن أنّ الروايات الّتي تُعجب المرء انعكاس لما يفتقده، فالشخص الخائف يهتم بصوت الأقدام، أنت لا تفتقد الحُبّ أو بالأحرى لا تحتاج إليه».

«كان الحُبّ بالنسبة إليّ مثل زحليقة الأطفال الّتي لا يمكن الخروج منها إلّا بالسقوط على الأرض، ولم أكن أريد السقوط.»

ابتسمت وقالت: «أنت غيرت الأعراف الرومانسية الّتي طالما حلمتُ بها»، سألته: «هل تؤمن بالموسيقى؟»

«تتساوى عندي نقرات الألة الكاتبة مع نغمات البيانو»، أضاف بسخرية: «وما فائدة الموسيقى!»

ابتسمت وأجابت: «الموسيقى بوّابة ندخل منها إلى كون أخر موازٍ، شبيه بكوننا، غير أننا نجد فيه راحة».

«هل تؤمنين بالأكوان المتوازية؟»

«أؤمن بما تؤمن به.»

«و أنا قبلك ما أمنتُ يومًا بالنساء، كنتُ أظن أن الفيزياء تكفيني.»

أضاف: «أحذرك؛ قضيّتي ليست للتسلية أو رواية مُثيرة تجلب الشهرة لصاحبها، إذا تمت ادانتي بالتّجسّس لصالح السوفييت، فسيكون مصيرنا الإعدام بالكرسيّ الكهربائي مثل يوليوس روزنبرغ وزوجته إيثل».

كانت مُستلقية على ظهرها فوق الأريكة، نشرت ابتسامة ساخرة وهي تقول: «وربّما أكتب رواية عني وعنك.....»، قاطعها: «لن تكون رواية مُثيرة، أنا رّجل مُمل»، احتجَّت على كلامه: «ستكون رواية مثيرة، فالأحداث فيها غامضة، والفاعلون مجهولون، والأشرار في كل صفحة، والمعلومات الهامّة بالقطارة، والبطل مُعذب وحياته في خطر دائم ومتنوع، قصّة تكسر كل قوانين الكتابة وتخلق لنفسها قوانين جديدة»، أضافت بحماسة: «ستكون رواية مُثيرة حقًا، وستشتري Universal Pictures حقوق تحويلها إلى فيلم بآلاف الدولارات، وسنصبح أغنياء»، قال: «حينها سنكون في السجن أو عند الربّ»، «هل في الملكوت روايات؟»، «فيه كل شيء جميل».

قال: «لم تسأليني إنّ كنتُ حقًا جاسوسًا للسوفييت».

قالت وهي تنظر ناحية الحقيبة المُمزقة فوق المنضدة: «إنهم ير اقبونك طول الوق.....

قاطعها: «هذا، لقد عطلته منذ الساعة الأولى، دخلتُ الحمام في جر اند سنترال وأغرقتها بالكوكاكولا وقضمتُ الأسلاك بفمي من الداخل».

قالت: «إن كنت خائنًا لعلم الولايات المتحدة، فلن يرسلون في طلبك، سيأتون إليك بأنفسهم»، نظرت إليه وأضافت ببرود: «نسيتُ أخبارك أن لجنة التحقيق في النشاط المُعادي لأمريكا طلبتك للاستجواب».

قال أمين مذهولًا: «ماذا؟»

***

جلس أمين أمام خمسة قُضاة، عدا واحد؛ مايكل ماثيو، خلفهم علم الولايات المتحدة، وأمامهم أوراق مُرتبة فوق منضدة كبيرة تلمع، لا تلوثها ذرة غُبار، تفصل بين الفريقين، ويضعون أيديهم فوقها. الأمر يُشبه جلسات الاستماع في الكونغرس.

أقسم ويده فوق الدستور أن يقول الحقيقية، الحقيقة كاملة وختم القسم بقول: «وليكن الله شاهدًا عليّ».

«ما أسمك؟»، سأل رئيس اللجنة؛ وكان يجلس في الوسط.

«أمين عز الدين.»

«لماذا أتيت إلى نيوجيرسي؟»

«من أجل الدراسة.»

«أين تدرس؟»

«في جامعة برنسيتون.»

«هل سمعت عن حقيبة باڤو؟»

«ربما تقصد السيد كيزستوف باڤو، نعم أعرفه لكنّي لا أعرف ماذا تقصد بحقيبة باڤو؟»

«هل قمت بشيء ما يضر بأمن الولايات المُتحدة.»

«هذا مُستحيل سيّدي القاضي، أعتبر نفسي أمريكيًّا، ودائمًا أقول إنني أمريكيًّا مثل أنّ السّماء زرقاء.»

«هل قرأت المانيفستو الشيوعي؟»

«نعم سيّدي»

«هل تأثرت به؟»

«نعم، لكنّ سرعان ما زال الإعجاب، وتأثرتُ كثيرًا بسحق الدبابات السوفيتية للانتفاضة المجرية، عرّت ثورة المجريين الشيوعية أمامي.»

«هل سبق أن سافرت إلى الاتحاد السوفيتي؟»

«لا»

«هل سبق أن انضممت إلى الحزب الشيوعي هنا أو في البلد الّتي ولدت فيها؟»

«لا.»

«هل لديك صديق شيوعي؟»

«لا، ولكنّ هناك بعض طلابي وزملائي في الجامعة أظنهم.»

«ما أسمائهم؟»

«مُجرد تخمين سيّدي، ثم أنتم أعلم بهم.»

«من وجهة نظرك، منّ يكون وراء رميك بالرَّصاص؟»

«لا أعلم، ربما طلاب يهود غاضبون من كوني عربيّ الأصل.»

«أين كنت في الثامن من أغسطس/آب 1956؟»

انتظر قليلًا قبل قوله: «لا أتذكر سيّدي».

«لقد أكد الشهود أنك كنت ليلتها داخل القِطَار المسافر من نيوجيرسي إلى واشنطن.»

«لا هذا مُستحيل.»

«ألم تقل إنّك لا تتذكر أين كنت تلك اللّيلة!»

«نعم لا أتذكر، لكنّي لم أنل شرف الذهاب إلى واشنطن إلّا مرّات قليلة، أتذكرها جيّدًا.»

«هل اتصل أحد بك تابع للاستخبارات السوفيتية، طالبًا خدمة أو مُقدمًا عرضًا؟»

«لا سيدي.»

«هل كيزستوف باڤو شيوعي؟»

«لا أعلم.»

«هل تعرف طبيعة عمل كيزستوف باڤو؟»

«إنه المُشرف على أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه، وأعلم أنه شارك في المشروع النووي.»

«انتهى التحقيق، ولكنّ إنّ ثبت كذبك ستواجه الجحيم، هل تود انقاذ رقبتك وتغيير أيّ كلمه قُلتها، أو إضافة شيء.»

«لا سيدي.»

وّقع، وأغلق التحقيق وطُلب منه المُغادرة.

***

أمسك أمين من ذراعه وقال: «هل أبهرت المُحققين كعادتك؟»، في نفس الوقت ظهر رّجل والتقط صورة إليهما، باغت أمين صوت الكاميرا، ارتبك واستدار إليها، كان زجاج كشاف الإضاءة في عنينه، التقط المُصور صورة ثانية، لم يكن هناك فرصة للرد، قال الرّجل الأصلع: «من الواضح أنك أذكى مما كنا نتخيل».

«نعم، أنا فيزيائيّ.»

لم يكن وجه أمين طبيعيًّا، أشار ناحية المصور وسأل: «منّ هذا؟».

«لا تقلق، مُجرد صورة تذكارية.»

«هل هناك شيء لم تخبرني به؟»

«ما هو؟»

رد أمين: «أنت من يجب أنّ يقول».

«دعني أخبرك بصراحة، من حسن حظّك أنّك تعمل مع رّجل مثل كيزستوف باڤو، تعلم أنّ أوراقه عن القنبلة الهيدروجينية مَفقودة، أو بمعنى أدق سُرقت ومَعها أوراق أخرى هامّة، نعلم أنها بحوزتك، نُريدها بأيّ ثمن».

ادعى أمين الجهل بالموضوع، وأضاف: «باڤو أستاذي و أفضل مُعلم على الإطلاق، كيف أفعل معه ذلك!!!»، أضاف بعصبية: «الأفضل قطع كلّ جسور التواصل بيننا، رقبتي ستكون الثمن».

«لا نقصد إلحاق الضرر بك.»

«لا شأن لي بنو اياكم الحسنة.»

«مالا تعمله أنّ باڤو كان في طريقه إلى واشنطن لمُقابلة عميل سوفيتي في مكان آمن بجورج تاون[32]، كان العميل سيلتقط صورًا للأوراق الّتي في الحقيبة ثم يردها إلى باڤو، أيّ الحقيبة في الأصل ملك لنا، و أنت ترد الحق إلى أصحابه».

أضاف الأصلع ببرود حانوتي: «قبل التحقيق القادم عليك تحضير جوابًا عن صورتك مع مسئول الاستخبارات في السفارة السوفيتية».

بدأت مرحلة الابتزاز أو الإكراه على التعاون.

سأل أمين: «ما الّذي يجب عليّ فعله؟»

«شيء بسيط للغاية؛ حقيبة باڤو، وبعدها سيذهب كلٌ منا في اتجاه».

«وهل سيكون هذا العمل بدون أجر؟»

ألقى الأصلع ابتسامة فاترة، عَرف أنّ أمين يود التلاعب بهم، أو يربح المزيد من الوقت، قال: «مستعدون لدفع أيّ مبلغ مقابل الحقيبة أو صورة من

---

[32] أحد أحياء العاصمة واشنطن.

الأوراق». أضاف بلهجة تهديد: «لكنّ لا تظننا أغبياء؛ لا نعلم أين نضع أموالنا، لابد أنّ نتأكد أولًا أنّ لديك ما يستحق وما نُريد»، هنا أدرك أمين أنّ وجود الحقيبة معه غير مؤكد بالنسبة إليهم، ختم الأصلع كلامه: «وإذا أعجبنا عملك ستحصل على مكافأت مُجزية».

قال أمين وكأنه لم يكن يُفكر في شيء: «إنّها أموال الشعب، تنفقها أجهزة الاستخبارات ببذخ».

«أوليس أمن الشعب يستحق كلّ هذا البذخ!!، الناس ينفقون الملايين على السجائر وزجاجات الخمور.»

«تشعلون الحروب وسباقات التسلح بأموال الشعب، وتقولون: الشعب مُهدد، فتنفقون أموالًا إضافية من أجل الأمن»، أضاف: «الفقراء أولى بتلك الأموال الضخمة وهم أصحابها في الأصل، توقفوا عام واحد عن انتاج السلاح».

«وهل أعداؤنا سيتوقفون؟»، أضاف الأصلع: «هل تعلم لماذا طُرد أدم من الجنة؟»

رد بتلقائية: «لأنه أكل من التفاحة».

«لأنه خسر الحرب أمام الشيطان»، أضاف الأصلع: «الحرب قائمة طوال الوقت وكلّ ما عليك فعله ألّا تخسرها».

«نعم، هذه الحرب بين الإنسان والشيطان».

«لا أؤمن بالشيطان في الأديان الإبراهيمية، لكنّي أؤمن بوجوده بيننا، الشيطان موجود في الرأسمالية الجشعة، الشيطان داخل كلّ واحد فينا.»

***

العظيم أبي،

أنا بخير مثلما تُخبرني عن نفسك. مرت خمسة أشهر على لقائي الأوّل بسارة، أرجو ألا تهزأ بوقوعي في الحُبّ، أصبحنا لدينا ذكريات مُشتركة ومطعمًا مُفضلًا، يُقدّم المعجّنات الشهيّة، يُدعى «لاتسيو»، تغيرتُ يا أبي، لكنّي لم أنسى، وقعت لي مُعجزة؛ قرأت روايات ثقيلة وأخرى لعينة وتخليتُ عن قناعات وملابس أبدو بصحبتها فارس من القرون الأولى، أصبحتُ أتذوق الموسيقى، اكتشفتُ أنّها لا تقل متعة عن حل التفاضلات والتكاملات المعقدة والتحديق مَعها في «أعواد الثقاب المُشتعلة». أحيانًا يجب أنّ نُغير طريقة تفكيرنا لنكتشف شيئًا ما.

أسوأ شيء؛ مُغادرة الجميع القاعة حينما حان دوري كي أتكلم، لم يستمع أحد إليّ، وكانت سارة جمهوري الوحيد. تبدو الأفكار الّتي أتبناها مُزعجة، لا بل مجنونة، وأعلم ذلك، لكنها ليست فاسدة، وكلّ الأشياء العظيمة حولنا بدأت بالجنون. قال كوبرنيكوس وجاليليو: «الأرض تدور حول الشمس»، كان جنونًا ولم تقنع الكنيسة والناس بأنهم يلفون وهم نيام.

أستحق سيارة بورش 356، فلقد قمتُ بشيء رائع، ويكفيني إيمانك بي و إيمان سارة بما أقول.

هل ستنسحب إسرائيل من سيناء كما تقول الصُحف هنا؟، هل يترك اليهود أرضًا احتلوها؟، هل تخلوا عن حلمهم؛ من النيل إلى الفُرات؟، أرجوك أرسل إليّ.

سلامي إلى يوسف.

ابنك غير المُخلص، أمين عز الدين.

نيوجيرسي

***

سألها: «هل تُحبينني؟»

ردت: «لماذا تُريد اجبار الشمس على الاعتراف أنها شمس؟»

«لأنها ليست واضحة.»

«ضوئها يقول إنّها شمس وأشعتها تقول إنّها شمس»، أضافت بعد سكتة قصيرة: «أعظم كلمات الحُبّ تتوارى خلف صمت اللسان وبوح الأعين»، أضافت مازحة: «أنا امرأة تُعادل كفة فيها تمثال الحرية وأهرامات الجيزة وبرج باريس فكيف تقع في الحُبّ بسهولة». يُلاحقهما صوت ارتطام المعالق بالأطباق، نظر في عينيها وقال: «أضاع ليوناردوا دافنشي[33] عمره في البحث عن النسب الذهبية».

قالت سارة: «ماذا؟»

«ظل دافنشي يبحث عن أبعاد الوجه المثالي، لو رأى وجهك لوجد ضالته.»

هربت عيناها وراحت تتأمل طفلة تجلس مع والديه، تزهد في قطعة البيتزا أمامها، وتنظر ناحية باب المطعم، عبارة عن درفتين، كلّ واحدة إطار من الخشب حول لوح زجاج شفاف، من الخارج تُقرأ كلمة «لاتسيو» على النصف العلوي من الزجاج بينما تُرى معكوسة من داخل المطعم، تُحاول الطفلة عكس الحروف لتقرأ الكلمة صحيحة. قال أمين: «أغار عليك من ضحكة طفل تأخذك مني، من هدوء بداخلك أغيب عنك فيه»، قالت: «لقد

[33] رسام وعالم ونحات إيطالي مشهور خلال فترة عصر النهضة، ومن أشهر أعماله لوحة «الموناليزا».

أصبحت شاعرًا، أصبحت تعبر عن نفسك بطريقة أفضل، وتحسنت مهاراتك في التواصل مع الآخرين».

«أشعر بذلك».

«الروايات وّسعت ذكائك اللفظي؛ منحتك المفردات الّتي ساعدتك في التعبير عن ذاتك والتواصل مع الآخرين بشكل جيّد، حسنت قدرتك على اكتشاف أفكار ومشاعر الآخرين، ففي الروايات نقرأ حكايات الآخرين، نهتم بها وكأنها حكايتنا، نتعرف على شخصيات، ونُخمن دوافعهم الخفية ونقرأ بشغف لقاءاتهم وحديثهم مع الأصدقاء والأعداء والجيران والعشاق، ذلك يخلق رابط اجتماعي بين القارئ والشخصيات، كلّ ذلك منحك قدرة عظيمة على بناء نماذج عقلية للناس من حولك».

حينما انتهت وقعت عينيها على غُلاف روايتها؛ «طائرة ورقية لطرد الأشباح»، ترفعها يد، ويختفي خلفها وجه قارئ، اقتحمت السعادة قلبها، نهت أمين، فرح لفرحها، قامت لتوّقع الرواية للقارئ، قال: «إنها حقًا رواية رائعة، وأنا سعيد لمُقابلة كاتبتها»، وانزل الرواية من أمام وجهه، تنهد أمين، إنّه الرجل الأصلع.

جرّ سارة من يدها، وغادرا المطعم، تركا فطيرة الدجاج فوق المنضدة، تهدأ النار في أحشائها على أغنية «هيرتبريك هوتل» لـ«إلفيس برسلي».

***

## -الفصل السابع-

كان الجدار أمام قاعة المُحاضرات مُزين بصور تحدها إطارات مُذهبة. هرتز، ماكس بورن، ماكس بلانك، هايزنبرج، وغيرهم. جميعهم وحتّى في الصور عليهم الهيبة والوقار عدا شخص واحد يبدو مجنون، يُخرج لسانه وعيناه جاحظتان وشعره ثائر في كل الاتجاهات. قال هذا الإنسان: «أنا فقط أطرح الأسئلة الّتي يطرحها الأطفال»، سأل أمين نفسه: «كيف استطاع الوصول إلى مُقدمة ألبوم علماء الفيزياء؟»، «لماذا المتاجر في لندن وباريس ونيويورك تلصق نظرياته على الزجاج الخارجي؟». لم يكن يكره أينشتاين لكونه يهوديًّا، يكفي رفضه عرضًا لرئاسة دولة اليهود.

بينما كان أمين يُحدق في صورة أينشتاين وكأنه يستجوبها، شعر بأصابع تنقر على كتفه الأيمن، التفت إلى المنبع.

قالت سارة: «هل تُحب استجواب الصور؟»

«نعم، فاللحظة الّتي تصوّر لا تموت.»

«هناك صورة لشابّة مُعلقة في بيتك، هل هي حبيبتك؟»، قالت ذلك والصورة حاضرة في ذهنها.

أخذها إلى داخل قاعة المُحاضرات الفارغة، قال: «نعم، إنّها حبيبتي وأعظم امرأة في التاريخ، إنّها أمّي».

لم يُحدثها عن عائلته، سألت: «أهيا في صيدا الآن؟»

«في سّماء اللّه.»

أضاف وهو ينظر إلى الماضي بعمق:

»

حينما كنت صغيرًا كنت أعيش في الجنة؛ قرية أمّ الزينات بفلسطين، كانت حياتي تمضي مثل أيّ صبي سعيد، إلى أنّ حضرت عصابات اليهود والذكريات السيئة، كانوا يدخلون القرى ويقتلون من فيها. شاركتُ الأطفال والنساء في وضع متاريس من الخشب والصخور في كل مَكان وبناء سور حول القرية من شكائر الرمل. وحان الدور على قري مُنحدرات جبل الكرمل وأم الزينات، حاصرتها عصابة «غولاني»، وبدأ الهجوم ليلًا، حملت أمّي السلاح، تركتني وذهبت، وقفت بجوار أبي، فوق خط الدفاع الأوّل. بعد ساعة تقريبًا؛ تركتُ أخي الصغير؛ يوسف وخرجت، كانت القرية مُظلمة وفارغة وصوت الرَّصاص لا ينقطع، ويصعد إلى السّماء. بالتأكيد سمعتُ صوت الرَّصاصة الّتي أصابت أمّي، استهدف صدرها قناص يهودي، حملوها إلى البيت وهي تنزف وتتعرق، ولا تتكلم، قابلتهم في الطريق، سألني أبي: «ماذا تفعل هنا؟، أين يوسف؟»، لم يقدروا على حملها إلى المستشفى، فاليهود يُحاصرون القرية. عاد أبي إلى القتال، وتجمعت بعض نِساء القرية في بيتنا، كتموا الدم وطهروا الجرح باليود، ثم جلسنا في الظلام حول سرير أمّي؛ فمن غير المسموح لنا بإنارة شمعة صغيرة. وقُرب الفجر؛ كسرت أميّ قوانين الجاذبية، تخلصت من جسدها المادي، توفِّيت بين ذراعي، أخذت الضحكة وذكريات الطفولة ورحلت، كان ادراك يوسف لما يقع يفوق سنِّه. رغم رؤيتي للموت منذ وصول عصابات اليهود من أوروبا إلّا أنّ موت أمّي كان فاجعة ثقيلة، جفت الحياة بعدها. في الصباح؛ استدعى اليهود المدافع وأمطروا القرية، دخلت عصابة «غولاني» أمّ الزينات، اقتحموا الأبواب، كانت أمّ الزينات تُغطى سَفح جبل الكرمل وبيتنا في الأعلى؛ على المُنحدر. عاد أبي، وجد يوسف يبكي بجوار أمّي، أمّا أنا فكنتُ صامتًا، احتضن يوسف وقال: «لا تحزن، أمّك الآن تصطاد صحون الفاكهة الطائرة، وتتمايل على أرجوحة

من الذهب». كان الصُراخ وإطلاق النار يصعدان من القرية، نظر أبي من الشباك ونادى عليّ: «هيااا»، لم أجبه، «هيااا يا أمين»، لم أجبه، كأنني أسمع أصوات أقدام اليهود في الخارج. حمل أبي يوسف وهربنا، تركنا أمّي خلفنا، دون أنّ ندفنها، لم تكن أمًّا وحسب؛ بل مُربية، مُعلمة رغم أنّها لم تكن تُحسن القراءة والكتابة، حنونة؛ تُشبه رمال البحر النقيّة الّتي يستريح في أحضانها ماء البحر حينما يتعب من السفر.

افترقنا عن أمّي، بكى يوسف بهستيرية ونحنُ ننزل جبل الكرمل؛ عكس اتجاه القرية، لم أكن أبالي بالعاصفة الّتي كدنا نطير معها ونيران اليهود الّتي تصيَّح، طلب أبي من يوسف النزول إلى الأرض والاختباء أسفل شُجيرات، كانت هذه أوّل كلمات ينطقها أثناء نزول الجبل، اِختَبَأنا نصف ساعة تقريبًا، وفجأة قام أبي وطلب من يوسف النوم على الأرض، وغلَّفه بالأغصان جيّدًا، وثبتها بحجارة ثقيلة، أمره: «لا تتحرك»، نظُرت إليه مُتأثرًا قبل أنّ نتركه. كنتُ أتمنى العودة إلى أمّي، أحملها بين ذراعيّ، وفي نفس الوقت كنتُ أخشى فقد أبوي في يومين مُتتاليين. عدنا إلى البيت، دخلتُ خلف أبي الّذي كان يرفع البندقية الآلية أمامه مثل الكوماندوس، حَفَرَ أبي حُفرة وَسِعت جسد أمّي، أخبرته: «يجب أنّ نُغسّلها ونكفّنها»، رد: «الشهداء لا يُغسَّلون ويُكفَّنون في ثيابهم الّتي استشهدوا فيها»، حملنا جسدها الطاهر ووجهناه ناحية مَكة المُكرمة، صلينا عليها بسرعة، ثم وضعناها في الحُفرة، بَتر حَديث عبريّ في الخارج صمت الموت، قال أبي: «هششششش»، أمسكَ البندقية الآلية، وذهب ناحية الشُّبَّاك المُغلق، ظل صامتًا لدقيقة، حدد فيها مَوقع الهدفين، وفجأة دفع الشِّيش و أفرغ الطلقات في المُتحدث والمُستمع، قال: «هيا يا أمين، اليهود هنا»، تركنا قبر أمّي مكشوف، هل دفناها حقًا؟

عُدنا إلى يوسف، نجاه اللّه، استطاع أبي الهروب بنا عبر طُرق ريفيّة مُتعرّجة وضيقة، اختبأنا أحيانًا في قُرى لم تصلها الهاغاناه (عصابات اليهود) بعد، كانت رحلة شاقّة والسهول مُمتدّة أمامنا. وحينما يحل الليل، ننام فوق

العُشب أو على الرِمال، سأل أبي يوسف في الليلة الأولى: «ماذا ترى في السّماء؟»، سكت ثم قال: «أرى أعواد ثقاب مُشتعلة»، ضحكنا، من وقتها و أبي يُطلق على النجوم: «أعواد الثقاب المُشتعلة»، بدأ أبي يُشرّح السّماء، ويحكي علم مُسلي، ولديه الكثير المُمتع عن أعواد الثقاب، وطوال الطريق كنا نهتدي بالنجوم.

تركنا حدود جنّة عدن؛ فلسطين، قال أبي: «أنظرا خلفكما، فلسطين، سوف تعودا إلى هنا يومًا ما»، سألتُ أبي: «إلى أين نذهب؟»، أجاب: «إلى المكان الّذي يجب أنّ نكون فيه الآن»، قلتُ لأمّي: «إلى اللقاء»، أوجعني توديعها. بعد أربعة أيام على موت أمّي؛ عبرنا الحدود الّتي زرعها الإنجليز والفرنسيين بين لبنان وفلسطين، وصلنا المُخيم، سكنا خارج مدينة صيدا، في عشو ائية تم اعدادها لاستقبال الفلسطينيين، يطلقون عليها مُخيم عين الحلوة، ولم يكن فيه شيء حلو، خيمة واحدة لكلّ عائلة، سألتُ أبي: «ماذا نفعل هنا؟»، «متى نعود إلى أمّ الزينات؟»، «متى أرى بحر حيفا؟»، كانت حيفا بحر وجبل وريف أخضر. صار البيتُ خيمة والشتاء بلا غِطاء والطعام قليل، وقابلتُ صبي من قرية مجاورة، فرَّت عائلته قبل وصول عصابات اليهود، أخبرني؛ لم ينجو أحد من أمّ الزينات، حتّى الماعز، جَمَعَ اليهود جثث الشهداء و أقاموا محرقة كبيرة، «أوه قبر أمي المكشوف»، نسفوا البيوت وأزالوا اللافتات العربية ومعالم القرية، أصبحت لا شيء. وتوالى وصول الفلسطينيين، وازدادت الحياة سوءًا وأصبح المُخيم جحيمًا وأطلقوا علينا لاجئين، وأضافت الهموم ثلاثون عامًا إلى عمر أبي، صار عجوزًا في الخامسة والثلاثين ومُعلمي الأوّل.

«

ظل الصمت حاضرًا بقوّة لدقيقة، حتّى قال أمين: «شحنت المُنظمات الصهيونية اليهود من أوروبا و أفريقيا وكلّ مكان في العالم إلى فلسطين، بينما كانت عصاباتهم تغتصب الأرض بالسلاح وتقلع الفلسطينيين من

أرضهم وتُزيل كلّ ما هو عربيّ، وقالوا هذه أرض إسرائيل، ونحنُ أبنائه؛ فهل كان إسرائيل أوكرانيًا وألمانيًا و أثيوبيًا وأمريكيًا وعربيًا؟»

قالت: «لهذا سرقت حقيبة باڤو، كي تعود إلى فلسطين!»

أجابها: «هل تشعرين بالوحدة، وتُسلي نفسك بتلك القصّة الخيالية؟»

«الكاتب لا يشعر بالوحدة أبدًا، ولو كان مُنعزلًا عن العالم، معه في كل لحظة شخصيّات منحهم قلمه صكّ الحياة، يجلسون حوله في انتظار قدرهم.»

أخرج أمين بطاقة بريد من حقيبته عبارة عن صورة أبي الهول، كتب على ظهر الصورة: «كنتُ أريد بناء بيتنا فوق القمر، لكنّه لا يجتمع قمرين في مدار»، أمسك البطاقة وقربها من وجه سارة، أشار إلى خط رفيع أسفل صورة أبي الهول، وقال: «تحت عدسة مُعينة يظهر الخط عبارة عن جُملة مُتكررة: I Love Sara»، أضاف: «لن تجدي بطاقة بمثل هذه المواصفات في هذا العالم، احفظيها جيّدًا»، وفجأة مزق البطاقة وشق رأس أبي الهول لنصفين غير متساويين، أعطاها نصف البطاقة وقال: «إذا أخرج شخصٌ ما نصف البطاقة الّذي معي، فيُمكنك الذهاب معه، سأكون في انتظارك»، أخبرها أنّه يُحبها بشدة، ولن يكون اللقاء الأخير بينهما، وضع نصف البطاقة الثاني في حقيبته.

***

على مدار ثلاثة أيام، من الصبح إلى العاشرة مساءًا، دهس عميل سرّيّ الشارع أمام بيت سارة، على الأقدام وداخل سيارات خاصّة وباصات عامّة، والتقط صورًا بطريقة خفيّة، كلّ ذلك كي يجد أفضل طريقة لتنفيذ المَهمّة الموكلة إليه.

درس الشارع ليلًا، وفكّر في تعطيل عمل أعمدة الإنارة، لكنّ الشارع شبه المَهجور شجعه على تنفيذ العَمَليّة قبل رحيل أشعة الشمس بساعة.

ألقى نظرة أخيرة على مَسرح العَمَليّة، بينما كان أمين يقرأ لسارة داخل السيارة. شعرت معه بأنها تمتلك الحياة، وفي اللحظة الّتي يظن المرء فيها أنّه امتلك الحياة يكون قد خسر كلّ شيء.

قرأ:

»

*في ليلة كان القمر يراقب فيها أهل الأرض، أحضرتُ طائرة ورقية صنعتها بنفسي، عقدتُ طرف خيطها في عامود إنارة أمام مسكنها. جريتُ بالطائرة ثم فجأة تركتها فحلقت في مَلكوت السماوات، هربت سريعًا نحو حرية سرعان ما أدركت الطائرة أنها مخادعة، أرادت أن تعلو أكثر فجذبتها القيود ناحية الأرض، غضبت وأخذت تموج يمينًا ويسارًا، لكنها في النهاية استسلمت لقوة القيود، كما يستسلم أحدنا لقدره ناسيًّا أنّ الله خلقنا أقوى من الأقدار.*

*رميتُ حجر صغير في باب شرفة غرفتها، وانتظرتُ حتّى خرجت. ابتسمت وأشارت بيدها، ماذا تريد؟، جذبتُ خيط الطائرة الورقية وسحبها فتحركت معه وبرزت لمحبوبتي. لمعت الطائرة في الظلام بفضل ألوانها الفسفورية، تحوم في سّماء البيت كي تبعد عنه الأشباح، أخبرتني يومًا ما؛ الطائرات الورقية تبعد الأشباح عن البيوت، وقديمًا آمن الصينيون بهذا، وقرب مجيء اللّيل كانوا يعقدون نهايات خيوط الطائرات الورقية فوق أسطح البيوت. يومها؛ كدت أنّ أجادلها، لكنّني تعودت ألّا أجادل امرأة جميلة ولا أضعها في زاوية تبدو منها مخطئة، وذلك احترامًا للجمال، واليوم؛ أؤمن بالخرافات الّتي تؤمن بها.*

«

كانت الرو اية «مُتعددة الأصوات»، وأحبت الكاتبة سرد التفاصيل (شيطان الكاتب) والوقائع والأحكام الأخلاقية من وجهة نظر كلّ شخصية، وهكذا شدّت انتباه القارئ، وأرضت غرور شخصياتها؛ لم يحتفظ أحدهم بالبطولة، وزعتها عليهم، بالطبع لم تكن عادلة، أحبت وتعاطفت وكرهت، ويشعر القارئ بشخصية أو اثنين؛ على فترات يستردّان البطولة من الكاتبة بعد مَعركة دامية، ويُطلقان النار على قناعات القارئ وينسفان المنطق والأحداث، وبعد صفحات قليلة؛ تعود الكاتبة إلى رُشدها، تتخذ الإجراءات اللازمة وتمنح شرف البطولة إلى صوت المنطق والعقل في الرو اية. في النهاية؛ ينام الجميع وهم راضون؛ القارئ والكاتبة والأبطال.

***

قال أمين: «من منكم صُدم من نظرية الكم؟»، رفع المصدمون أيديهم. «تسع، هذا جيّد»، سأل مرّة أخرى: «كم شخص لم يصدم من نظرية الكمّ؟»، «ثلاثة».

«في الحقيقة كل من لم يُصدم من نظرية الكمّ، فإنه لم يفهمها جيّدًا، هذا ما قاله نيلز بور. وأضيف: الصدمة على قدر الإدراك»، التف إلى السبورة وكتبت عليها الرقم تسعة، وقال: «لدينا تسعة أدركوا خطورة نظرية الكمّ، لا أقول فهموها، لا أحد يفهم نظرية الكمّ، لأنها تُخالف الطريقة الّتي تعمل بها عقولنا».

***

هناك سيّارة و اقفة، بداخلها رّجلين، سائق ومُر افق، تكلم المُر افق في هاتف لاسلكي مثل هو اتف البوليس حينما شاهد سارة تخرج من البيت وتتجه ناحية سيّارتها، في أفضل توقيت حضرت سيّارة بينما كانت سارة تفتح باب سيّارتها، نزل منها شخصين، باغتا سارة على غرة، دفعاها في المقعد الخلفي

للسيّارة، طوقاها في المَقعد و انطلقت السيّارة، وسارت خلفها سيّارة التأمين والمُراقبة، جرى الاختطاف بسرعة عالية، بدون مُبالغة لم يستغرق عشر ثوانٍ. ترك الفريق خلفه سيّارة سارة، والعجلتين الخلفيتين مثقوبتين وفارغتين من الهواء.

أمسك أحدهما ذقن سارة ووضع يده الثانية على رأسها من أعلى، وهي ساكنة كالموتى، تُحدق أمامها وترتجف من الخوف، بدا وكأن الرجل سيكسر عنقها في لحظة ما، طلب الآخر من سارة النزول في الأرضية وفي نفس الوقت أطلق الأول سراح رأسها، نفذت الأمر دون أنّ تفتح فمها، فقط أغمضت عينيها ونزلت في الأرضية، اختفت، وذلك المطلوب، بالإضافة إلى أنّها لن تستطيع تحديد المكان الذاهبة إليه. بعد قليل فتحت عينيها وأخذت تُحدق في سقف السيّارة، صفعها أحد الرجلين على وجهها بكلّ قوة وقال: «اغلقي عينيكِ أيتها العاهرة»، صرخت، لكنّ لسوء حظها كانت السيّارة تسيروحدها على الطريق، أخرج الرجل لاصقة مُعدة لذلك، نزع الشريط الّذي يُغطي المادة اللاصقة، وكتم فم سارة، وعصَب الآخر عينيها. تأكدت أنّه لم يبقى في عمرها الكثير.

***

كراقصة بالية تدورقطعة نقود من المعدن على الأسفلت بين فردتي حِذاء أمين، حينما تقترب منه تتنافروتبتعد مرة أخرى، تدورفي حالة وهمية، بين الملك والكتابة، وضع حذائه فوقها فأجبرها على التوقف، حينها أخذت قطعة النقود حالة واحدة؛ ملك أوكتابة، اختارت الاحتمالات الأوّل. كان أمين يقف بالقرب من كشك هاتف في الشارع، مكوّن من ألواح خشب بينهم زجاج شفاف ومكتوب عليه من جميع الجهات TELEPHONE، داخله رّجل يُجري مكالمة ويُغلق الباب، وحينما خرج دخل أمين الكشك وأغلق الباب، و اتصل بسارة، تظاهربأنّه يتحدث إليها.

طرق رّجل زجاج كشك الهاتف؛ كرر مرّات، نظر أمين إليه، وضع الرّجل يده على أذنه كأنه يتحدث في هاتف، أخذ يلف سبابة اليد الأخرى كأنما يلف قرص الأرقام الدوار، في الحقيقة لفّ الأرقام واحد ثم ثلاثة ثم تسعة، كان مُدربًا على تمثيل الأرقام في الهواء دون عُدّة هاتف، بغضب أشار أمين إليه بأصابع يده، واحد ثم ثلاثة ثم تسعة. طرق الرّجل الزجاج بغِلظة، أخذ يُشير؛ أُريد اجراء مكالمة سريعًا، فجأة فتح الباب بقوة ووضع قدمًا داخل الكشك الضيق؛ لا يسع اثنين، دسَّ في جيب أمين قُصاصة ورق لا تُغطي عُقلة أصبع بينما جرّه خارج الكشك. دخل الرسول الكشك وأغلق الباب وضع عملة معدنية في خزينة الهاتف، بصق أمين على الزجاج وسبه، فتح الرسول الباب ولكم وجه أمين.

في حمّام الشَقّة وضع أمين عدسة مُحددة فوق قُصاصة الورق، فظهرت حروف وكلمات وأسطر، قرأ أمين القُصاصة مرتين بدون صوت ثم أحرقها وفتح الماء على الرماد.

**

بعد ساعة، كان أمين يقود السيّارة على الطريق السريع، بسرعات متفاوتة، هادئة ثم سريعة ثم بطيئة ثم فجأة سريعة وهكذا، كلّ هذا كي يتعرّف على سيّارة المُراقبة. وفجأة أخذت السيّارة تهتز وتقف لحظة ثم تتحرك أمتار، كأنه باغتها عُطل. حافظ سائق السيارة خلف أمين على مسافة أمنة، معه امرأة وطفل، وفجأة انحرفت السيّارة المُتذبذبة ناحية الغابة، أوقفها أمين موازيًا للطريق السريع، عند لافتة تُعلن السُرعة المُقررة لمركبات النقل الثقيل، وهي الثالثة منذ استلام أمين للطريق، أطفأ المحرّك وترك الأنوار الأمامية، توقفت سيارة المُراقبة خلفة بمسافة كافية، وأطفأ السّائق المُحرّك والأنوار فأصبحت قطعة من اللّيل، الظلام يلف الأشجار الشاهقة المُخيفة، رفع أمين الكَبُّوت وعرّى أجهزة السيّارة، انحنى وتفحصها. وقف على جانب الطريق؛ حارتين، واحدة للقادم والأخرى للذاهب، أخذ يلوّح إلى

السيّارات الأتية، هناك شّاحنة مُخلّصة قادمة تُضيء الأنوار الكاشفة، حينما رأي سّائقها أمين من بعيد هدأ من سرعته حتّى أوقف الشّاحنة خلف سيّارة أمين، أوبالأحرى بين سيّارة أمين وسيّارة المُر اقبة، ترك السّائق مُحرّك الشاحنة يعمل، كان صوته عاليًا ولا شيء يعلو فوق ضوضائه، نزل من الشّاحنة والتقاه أمين أسفل الباب.

قال أمين: «لا أعرف؛ فجأة سمعتُ صوتًا ورأيت دخان خلفي كثيف وكأنني أقود قِطاريدوربالفحم»، قال النصف الأوّل من كلمة السرّ. الخطأ في هذه الخطوة يعني ألّا يثق أحدهما في الآخر، وبالتالي تفشل العَمَليّة كاملة، لذا من غير المسموح بهفوة في كلمات السروعلامات الأمان.

قال سّائق الشّاحنة النصف الثاني: «يبدو أنك تلعب الورق مع الفتيات داخل السيّارة»، رد أمين: «لا، ألعب الورق في ذا و انر». تأكدت كلمات السرّ وعلامات الأمان، في تلك اللحظة نزل رّجل ثالث من الشّاحنة، ترك مخبئه في كابينة القيادة.

ذهب سّائق الشّاحنة وتفحص ماكينة سيّارة أمين، ابتسم إلى مَقعد السّائق، أُدير مُحرّك سيّارة أمين و انطلقت، لم تُفتح الأنوار إلّا بعد أن ابتعدت، ظل سائق الشّاحنة ثوانٍ ثم تحرك، كان سائق سيّارة المُر اقبة يتكلم مع السيّدة ويُر اقب ، يرى فقط غرفة البضائع فوق المقطورة، فجأة تحركت الشّاحنة، وتبخرت سيّارة أمين، تحرك سّائق سيّارة المُر اقبة بأقصى سرعة، انطلق يحاول لِحاق أمين، عليه أولًا تجاوز الشّاحنة، لكنّ سائق الشّاحنة لن يسمح له بسهولة، ضغط على بوق السيّارة بغضب، فأشارله سّائق الشّاحنة في المرآة؛ اهدأ، لما العجلة!، ضغط على البوق بكل قوّة، فأسفح له الطريق، تجاوزجميع قو انين السرعة ونجح في لِحاق سيّارة أمين.

كان أمين بجوار السائق، مُختبئًا في أرضيّة كابينة قيادة الشّاحنة، بينما سيّارته يقودها الرّجل الثالث ويرتدي نفس ملابس أمين، حتّى قبعة فيدورا.

**

داخل كوخ يُدعى ذا هاوس؛ يُقدّم الطعام للمُسافرين على الطريق السريع، تعانق الرّجلين أكثر من المُعتاد في بلاد العرب، اختارا طاولة بعيدًا عن الناس، ثم جلسا على مَقعدين متجاورين، بحيث يكون وجه السيد تشارلز إلى باب المطعم. حضر شبح اللقاء الأوّل.

**

اللقاء الأوّل....

كل شيء بدأ منذ تلك الليلة؛ كان المطر ينزل بغزارة فوق الشمسية الزرقاء، يصطدم بها وينزلق ناحية الحواف ويُلاقي زملاء رحلته فوق بلاط الرصيف، ينزل المطر مُتصلًا ويشوش الرؤيا وأضواء المصابيح فوق أعمدة الإنارة، يخبئ قُماش الشمسية ربع رأس أمين الأعلى ويحمي جسده كاملًا من مياه المطر، يرتدي ملابس مُناسبة للصقيع، هناك حذاء جلدي خفيف خلفه، اتجه أمين ناحية سيارته، وهناك سيارة خلفها بسيّارتين، مرّ رّجل بجوار إحدى عجلتيها الخلفية، ألصق بالكاوتش جهاز ما، وأكمل طريقه. تحرك أمين بسيارته، وتبعته سيّارة المُراقبة، بعد قليل دارت القطعة المعدنية مع العجلة ومزقتها وسقطت، بعد قليل؛ توقفت سيّارة المُراقبة، وأصبح أمين حُرًا.

كانت السيّارة تسير ببطئ، قُرب البوابة، نادى عليه السيد تشارلز باللغة العربية: «سيد أمين، سيد أمين». أوقف السيّارة، كان يحن إلى كل ما هو عربيّ، عاد إليه وقال: «هل تقصدني». باتزان فتح السيد تشارلز باب السيّارة وقال: «أنت بالضبط منّ أبحث عنه»، ازداد الغموض.

.....

دار حديث طويل بينهما على الطريق. قُرب نهايته قال أمين: «إنها مُخاطرة كبيرة».

«ماذا تفعل إنّ كنت مكاني؟»

«لستُ مكانك، كنتُ أظن أنّك ستو افق دون تفكّير، النفوس الضعيفة أمام المال كثيرة، لكنّي أفضل أهل الثقة في هذه العَمَليّة بالذات، فأنا لا أحب الرّجل الخائن لوطنه ولو وطنه عدو لنا.»

«أؤمن أنّكم قادرون على تحرير فلسطين، التاريخ يقول هذا بوضوح، وإنّ لم يكن اليوم فغدًا.»

تلقى أمين تدريبًا ليومين على استعمال كاميرا دقيقة في ساعة يدويّة، حيث يتطلب استخدامها كمية ضوء مُحددة ومسافة مُعينة بين الكاميرا والشيء المُراد تصويره؛ سواء أوراق أو أشخاص وكذلك وضعية مُعينة للكاميرا أمام الشيء المطلوب تصويره.

تم تكليفه بمَهمّة.

وصل أمين من المهارة في استعمال كاميرا الحقيبة أنّه كان يصور الأوراق الّتي في يد باڤو وهو يسير بجانبه، يتظاهر برفع يده الّتي فيها الحقيبة لفعل شيء ما تلقائي ويلتقط الصور. استلم نسخة من مفاتيح مكتب باڤو، وكان يُحب الكتابة في مَكتبة، دخل أمين المكتب عشرات المرّات في حضور باڤو أو غيابه وصور جميع الأوراق والمسودات والأبحاث بساعته اليدويّة. لاحظ حقيبة مُغلقة بأرقام سرّيّة، وفي أحشائها النُسخ النهائية لأوراق باڤو عن القنبلة الهيدروجينية، قال عنها باڤو مرّة: «فيها الحياة والموت، فيها كلّ شيء».

**

قال أمين: «مصير العالم داخل حقيبة باڤو».

رد السيد تشارلز: «حاول تصوير ما بداخل الحقيبة بأيّة طريقة».

«مُستحيل، الحقيبة دائمًا مُغلقة ولا تُفارق باڤو.»

«نُريدها بطريقة نظيفة»، كانت القيادة السياسية تُصر على سلامة العلاقة مع الولايات المُتحدة.

قال أمين: «هناك طريقة سهـ.....

قاطعه: «لا تقم بأيّ عمل متهوّر، ننتظر، نحاول مرة أخرى، نريدها بطريقة نظيفة»، وهو ما لم يحدث، فوضع السيد تشارلز خُطّة هادئة مُتقنة، لم يستطيع رُؤَسَائه رفضها.

**

نعود إلى مَطعم ذا هاوس.

تحدثا بالعربية كالعادة. قال السيد تشارلز: «بعدما حصلنا على حقيبة باڤو طلبتُ منك المُغادرة، لا أدري لماذا كنت مُصرًا على البقاء؟»

قال أمين: «لم أكن مُتهمًا، ثم إنني لم أشارك في عَمَليّة السطو على الحقيبة»، كانت مُهمته جمع المعلومات؛ جدول أعمال وتحركات باڤو.

سكت عن اشعال السيجارة ورد بغضب: «أوقفت وقتها نشاطك السرِّيّ وأخبرتك أنّ الجميع سيكونون مُتهمين، حتّى منّ قابل باڤو ولو مرة واحدة في حياته عن طريق الخطأ، قلتُ لك أنت تقود سيّارة جامحة دون تعلم القيادة وقواعد الطريق الّذي تسير عليه، لكنك تمتلك القدر الكافي من الجنون لتستمر».

«كنتُ أظن أنّ القضيَّة ستهدأ والأيام ستُصلح كل شيء.»

ابتسم السيد تشارلز وقال: «الأيام لا تحل القضايا المُعقدة، لابد من تدخل البشر».

«أتعرض لعَمَليّة ابتزاز مُخيفة من الاستخبارات السوفيتية.»

«هذا متوقع، وتستخدمك الاستخبارات السوفيتية لمناورة الاستخبارات الأمريكية»، قالها وهو يُشعل سيجارة لنفسه ثم لأمين.

«هل هذا يحدث لي وحدي، أمّ يحدث لكلّ من يتعاملون مع باڤو؟»

«يحدث أشياء قريبة من هذا لكلّ انسان اقترب من باڤو يومًا ما.»

أخذ أمين أوّل نفس من السيجارة وقال: «أعمال الاستخبارات كالنداهة، يُغريك غموضها فتجري عليها، وما إن تصل تجد الهلاك في انتظارك»، أضاف بأمل: «لا أحد يُريدني ميتًا لأنه لا شيء عليّ إلى الآن».

«إلى الآن!»، أضاف السيد تشارلز: «إنّ كان واحدٌ لن تثق فيه في هذا الكون؛ فلتكن أجهزة الاستخبارات، لا تثق بهم مُطلقًا».

«إنني أراقب»، سحب السيد تشارلز نفسًا من السيجارة وأكمل: «الأمور لا تسير في صالحك الآن، الأرض سائلة تحت قدميك أكثر من أيّ وقت مضى، انتهى أمرك هنا، يجب أنّ تُغادر الليلة، انتهت لعبة الهر والفأر، ليس أمامك مُتسع من الوقت، رتبتُ كلّ شيء»، لم يُخبره بما وقع لسارة.

«أحتاج إلى ساعات قليلة.»

«حضرتُ من نيويورك على عجل، لإقناعك؛ حياتك الآن في خطر عظيم، انقذ نفسك.»

«أحتاج إلى ساعات قليلة.»

«هل تُريد الحديث إلى سارة؟»

اختار أمين الكذب، قال: «لا، لدي أشياء لأفعلها لأخر مرة»، ربما لو قال الصدق لأخبره بما وَقع لسارة.

طلب أمين مُهلة للغد، فلديه مَهمّة أخيرة قبل الرحيل، و افق السيد تشارلز لكنّه أحس أنّ أمين على وشك ارتكاب خطأ ما؛ مُخاطرة كبيرة وسيوقع نفسه في «ورطة النفس الأخير قبل النجاة».

دخل من باب المطعم الرّجل الّذي يرتدي نفس ملابس أمين، نظر إليه السيد تشارلز ففرد الرجل أصابع يده اليُسرى، وحرّك الذراع.

«الآن، قم وأطلب وجبة سريعة، سيارتك في المُربع الثامن، ورّجل المُر اقبة ينتظر داخل سيارته عند المدخل، التعليمات الجديدة في مكانها المُعتاد في السيّارة، بعد عملياتك الحسابية أضف ثماني ساعات إلى التوقيت، فهذه الخُطّة كانت مُعدة للتنفيذ الليلة، ملابس العَمَليّة في أرضية المقعد الخلفي، حظًا سعيدًا».

أسأ تشارلز التصرف حينما سمح لأمين بالعودة إلى البيت والنهاية وشيكة. أخطأ حينما تعاطف مع أمين، فالاستخبارات عمل منزوع العاطفة، يشفع له خطّته السريعة لتضليل وتشتيت جهد الاستخبارات المُعادية واضافة ساعات إلى عمر أمين.

ارتكب رّجل المُر اقبة جريمة، كان من المُفترض أن يدخل المطعم خلف أمين المُزيف، لأنّه من الممكن أنّ يكون للمطعم مدخلين، يدخل أمين من باب ويخرج من الآخر بينما ينتظره رّجل المُر اقبة عند الباب الّذي دخل منه، نظر رّجل المُر اقبة إلى مر اقبة أمين على إنها عمل روتيني لا يتطلب ابداعًا كون أمين غير خطير ولا يبدو عليه العمالة لأيّ جهاز استخبارات.

**

جلس أمين في مقعد السائق، تأكد أنّه لا أحد خلفه أو بجواره، أخرج كُرَّاسة يدوّن فيها مُعادلاته و أفكاره الفيزيائية، كانت الكُرَّاسة تحتضن قُصاصة التعليمات وقصاصات أخرى، ارتدى نَّظَّارَة القراءة ذات العدستين الخاصتين، فتح الكُرَّاسة وبدأت العدستين في عتق الحروف، أخذ يُحرك

رأسه لتكشف النَّظَّارَة الكلمات والجُمل، وفي نفس الوقت يكتب مُعادلات فوق الكلمات التي دخلت عقله. وكان قادرًا على حفظ التعليمات من المرّة الأولى.

كانت خُطّة وخريطة للهرب، يُسلم نفسه في مكان وموعد مُحددين؛ من المُفترض أنّ يدخل محل كبيرومشهورلبيع البذل وربطات العُنق والقُمصان والأحذية؛ يُدعى «ذا جنتل»، في الوقت الّذي تنزل فيه بضاعة جديدة من عربات مُغطاة أمام المحل تابعة لمصنع ملابس. وداخل غرفة تبديل الملابس، يُغير ملامح وجهه ويرتدي ملابس عُمال المصنع الّتي استلمها، يتبادل كلمات السر وعلامات الأمان البسيطة جدًا بلغة الإشارة، ويتبع المرأة وسط الزحام، ويختفي إلى الأبد.

بخفة دسَّ قُصاصة التعليمات في جيبه، خلع النَّظَّارَة، فتح باب السيّارة وخرج، دخل المَطعم، كان السيد تشارلزقد غادر، اتجه إلى الحمّام، تأكد أنّ النافذة مُغلقه والزجاج مُعتم، أخرج القُصاصة فتت الورقة وسكب الماء. أخذ الوجبة السريعة، وغادر المطعم.

فكّر أمين: «كيف سأتركها؟»

في الاسطورة: تزوجت عشتار من تموز، وحينما قُتل حزنت عليه ورفضت الخلود مع الآلهة، فما فائدة الحياة الأبدية إنّ كان المرءُ وحيدًا، وبعيدًا عن الأحبة!، اختارت عشتار الحياة مع تموزفي العالم السُفلي، لهذا صارت إلهة الحُبّ.

***

بعد نصف ساعة من اللقاء، اتصل رّجل من هواتف عامّة بصحيفة نيويورك تايمزوأخواتها ومحطّات التلفاز الأمريكية، نطق رسالة واحدة:

«منذ يومين؛ في فندق بمنهاتن عرض صَحافيّ عليّ وثائق علمية مُصنفة سرِّيّ للغاية، على ما يبدو أنّها لقنبلة شديدة التعقيّد والانفجار. وطلب فيها مبلغ مائتي ألف دولار، أوتوصيله إلى السوفييت مُقابل نسبة من الصفقة، وقال سيطلب منهم ملايين. سألته إنّ كان هناك نسخة أخرى من الوثائق، أجاب بنعم، ولكنّ هذه النسخة المعروضة للبيع فقط. سألته كم نسخة موجودة؟، فامتنع عن الإجابة. حُبّي لبلادي يمنعني من السكوت، لكنّ في الوقت ذاته، لا أريد التعرض لأيّة مخاطر».

وفي كل مرّة؛ يُغلق الخط فورقراءة البلاغ من ذاكرته.

قال مَصدر إلى «بي بي سي[34]» في لندن: القصّة غير مُلفقة، والوثائق تعود لتجربة نووية فاشلة أثناء الحرب الكبرى الثانية، دفنها الأمريكان مع خسائرهم فيها. وعلى ما يبدو أنّ أحدًا لم يهتم بحفظ وثائق التجربة الفاشلة أو أنّها نُسخت قبل اعدامها، حيث أنّها عديمة القيمة. على أيّة حال؛ يجب العثورعلى الصحافيّ والوثائق قبل تهريبهما خارج الولايات المُتحدة.

وأعتبر خَبير القصّة بأكملها فخًا لاصطياد جواسيس وعُملاء الاستخبارات الأجنبية العاملة في الولايات المُتحدة.

***

من شُرفة نيوجيرسي كان بحر حيفا؛ الفاصل بين أوروبا والشرق يظهر أمامه بوضوح، فهو كرّجل ينتظر القِطَار، كل دقيقة يعيد حساب الوقت الّذي يفصله عن القِطَار، كذلك هو كلّ يوم يعيد حساب الساعات الّتي تفصله عن الوطن. كان أمين في الشُرفة مشغولًا بالحنين إلى الوطن، بينما قنوات

[34] كثيرًا ما تستخدم أجهزة الاستخبارات الإذاعات ووسائل الإعلام في الدعاية المُضادة أو توجيه الجماهير أو تضليل أجهزة الاستخبارات المُعادية؛ وتعتبر الإذاعات والصُحف مصادر مفتوحة للمعلومات.

التلفاز مشغولة بقصّة صَحافيّ منهاتن والوثائق السرّيّة، وبيان مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI الّذي جاء فيه:

«بالتواصل السريع مع مؤسسات الدولة، تأكد لنا عدم فقد أيّ أوراق سرّيّة. إن صحت الوَ اقِعة فالمُتصل كان يتعرض لعَمَليّة نَّصب، والوثائق مزورة. وجاري التحقيق والبحث».

دخل أمين الشَقّة وأغلق التلفاز.

رَنَّ الهاتف في بيت سارة، لم يكن أحد موجودًا ليرفع السَّمَّاعة. عاود أمين الاتصال بعد دقيقة؛ بعد عشر دقائق، بعد ربع ساعة.....، بعد ساعتين، ظن أنها ذهبت إلى النوم مُبكرًا كعادتها.

ليلة غير مثالية، الغيام تُغطى النجوم والمَطر يتساقط، طلب من الربّ: «يا إلهي بحق هذه السّماء والنجوم الثاقبة للظلام، والملائكة التي تُنادى للصلاة، لا تتركني إليهم، لا تجعلهم يصلون إلى سرّيّ».

قبل أنّ ينام تناول كأسين «هايج أند هايج»، ذهب إلى السرير مُلتحفًا بالخوف من الغد والشوق إلى حيفا، لم يكن غسان كنفاني[35] قد كتب «عائد إلى حيفا» بعد.

***

في الصباح، كانت سارة جالسة فوق السَرِير، ترتعش وتضم رجليها إلى صدرها، ترتعش كفأر تجارب، تُعاني من صداع شديد يؤثر على عينيها. لم يتوقف الهاتف عن الرنين فاضطرت إلى القيام لإسكاته، وقفت على قدميها

35 أديب فلسطيني، ولد في عكا عام 1936، وفي العام 1948 أُجبر الصغير وعائلته على ترك فلسطين، تنقلت العائلة بين لبنان وسوريا، من رو اياته؛ «عائد إلى حيفا» و «رجال تحت الشمس» و «أرض البرتقال الحزين». استشهد في بيروت عام 1972، بانفجار سيّارة فخخها عملاء للموساد.

بصعوبة، حينما وصلت كان الهاتف قد توقف، لكنّ ما لبث أنّ رَنَّ مرةً أخرى.

رفعت السَّمَّاعة فقط لمعرفة من على الهاتف، لم تكن تنوي الرد، فوضعت السَّمَّاعة على أذنها والمايك الّذي تتحدث فيه في الهواء، بعيدًا عن فمها، وكتمته بكف يدها. شعر بها حتّى وهي صامتة، سأل: «ما بكِ»، لم تستطيع تجاهل صوت حبيبها، ضبطت السَّمَّاعة وقالت: «أنا فقط.....» وانهارت، بعد قليل، نجحت في استعادة قُدرتها على الكلام، وكانت تنظر ناحية الباب، كأنها تنتظر وحش مُخيف، غير مرغوب في حضوره ورؤيته، قالت: «أنا بخير، مُتعبة بعض الشيء، لقد كنت في زيارة لمقبرة أبي، وبكيتُ هناك كثيرًا».

قال: «أنا قادم حالًا».

ردت بنبرة حادة، وكانت تمسح أنفها بمنديل من القماش: «دعني وشأني، قلتُ لك إنني بخير».

«هل تحتاجين الذهاب إلى مُستشفى؟»

ردت وهي تحاول كتم دموعها والتنفس بشكل مُنتظم: «لا».

لم يشأ أمين تخطي الحدود، رغم أنّ الحُبّ نفسه تجاوز لجميع الحدود بين اثنين.

طلب لقائها في «لاتسيو»؛ مطعمها المُفضل، اعتذرت، وهي تمسح دموعها ادعت أنّ لديها موعدًا في الغد، مُقابلة للعمل في جريدة وتُريد الاستعداد. و افقت بعدما ألح عليها، قال إليها: «بعد نصف ساعة، سأمر عليك لآخذك»، ردت: «لا، السابعة مساءًا»، تحتاج وقتًا للتعافي فقد استنزف التعذيب قواها، كان الوقت يهمّ أمين، قال: «ماذا؟، لا أستطيع. نتقابل بعد نصف ساعة، أو لا نتقابل إلى الأبد»، ردت: «إذن؛ لا نتقابل إلى الأبد»، كان الاثنين متوترين.

أغلقت الخط، اتصلت بمونتغومري، حسبت اللقاء عاديًّا وما المانع من اخبار ذلك الحقير. بعدما أغلقت الخط وبخت نفسها، أخذت تُردد وكأنها تهزي: «ليتني لم أفعل، ليتني لم أفعل.....»، هي الآن ذبابة إنّ لم تأكل القاذورات فستموت.

استعد الثلاثة إلى اللقاء، حلق أمين لحيته وشاربه وهو يُعد خُطبة، ارتدي أجمل بذله، حاول أنّ يبدو أشد وسامة وأكثر لباقة من أيّ وقت مضى، أعجب بنفسه وبمغامراته الاستخباراتية حينما نظر في المرآة.

راحت سارة تتأمل وجهها في المرآة. استخدمت أدوات الزينة لإخفاء آثار التعذيب واستعادة حيوية وجهها بعدما كانت تستخدمها لتحلية وجهها أكثر.

في ذات الوقت تنتظر امرأة في محل «ذا جنتل».

***

رفع السيد تشارلز سَمَّاعة الهاتف، وسكت؛ من عادته ألا يبدأ بالكلام. وجميع مُكالماته سريعة، قليل من الكلمات الغامضة؛ من المُستحيل بناء قصّة عليها.

«أعتذر سيدي»، ترجم عقل السيد تشارلز الصوت إلى اسم وصورة.

أكمل المُتصل: «لم يأتي الخباز[36]».

فزع، تخلى عن حذره في الكلام، قال: «هرب!!، ابحثوا عنه في كلّ مكان، أحضروه بالقوّة، راقبوا صديقته جيّدًا، ستدلكم عليه، راقبوا مطعمها المُفضل، اختطفوه»، كان مُتأكدًا أنّ أمين لن يرحل بسهولة، والسبب كاتبة

[36] اسم حركي، يُستخدم في المُراسلات المُشفرة السرّيّة، والمقصود به أمين.

مغمورة لا أحد يعرفها غيره، تخيل أمين أمامه، وصرخ فيه: «أحمق... أحمق... أحمق».

***

رَنَّ جرس الباب، كانت سارة ترتدي ملابسها، فزعت جدًا. وقفت بعيدًا عن الباب، كأنه سينفجر، قالت: «من؟»، عرّف مونتغومري نفسه. فكّرت في رفاهية عدم فتح الباب، طلب منها فتح الباب بهدوء، بعد نصف دقيقة تقريبًا فتح الباب بمفتاح معه، أراد من ذلك توجيه رسالة إليها، أخذ قلبها ينبض بسرعة، ألقت نظرة خائفة في الأنحاء، ظنت أنّ هناك آخرون في الصالة.

دخل مونتغومري وفي يده حقيبة، تصرف كأنه في بيته، جلس على الأريكة وطلب حقيبة يدها، أحضرتها من غرفة النوم، وضعتها أمامه فوق المنضدة وهي مُرتبكة. استعادت تجربة بالغرق في مكان يبدو كمرآب مهجور، أدوات تعذيب على الحيطان، وفي السقف البعيد مصابيح غير كافية، ضوئها أصفر، تضاعف التوتر. تم تقييد قدميها ويديها ولفّ وجهها بقطعة قماش سوداء مع ترك مجرى ضيّق للتنفس، وبدأت نوبات «الإيهام بالغرق»، وتم سكب الماء باستمرار على وجهها، صرخت باستمرار، كانت تشعر أنّها تغرق بالفعل، وتأكدت أنّها تموت، وحينما أُوقف سكب الماء لم تُصدق أنّها حيّة.

أخرج مونتغومري من حقيبته جهاز تسجيل، فتح حقيبة سارة ووضعه بداخلها، أخذ يضبطه بطريقة مُعينة، أمرها أنّ تذهب قبل أمين، وتجلس على طاولة مُحددة، أسفل لوحة لوجه جورج واشنطن المُميّز، قال وهو يُشير ناحية مكان ما على الحقيبة: «حينما يصل أمين اضغطي هنا، وسيبدأ الجهاز بالعمل، وحينما ينتهي اللقاء اضغطي مرّة أخرى لإيقاف الجهاز». جذبها من شعرها فصرخت، قال: «يرتاح إليكِ، مَهمّتك، أن تجعليه يعترف،

يقول كلّ شيء». سألته: «كيف؟»، قال: «لا أعرف، أنتِ كاتبة، اختاري الطريقة».

فقدت قُدرتها على التركيز، اتصل مونتغومري بأمين وأعطاها السَّمَّاعة، قالت: «لا تمر لتأخذني، سأذهب بمفردي وقابلني هناك»، وأغلقت الخط. ظلت السَّمَّاعة في يد أمين، ألقى نظرة عَميقة على حقيبة الكتابة، وتذكر سارة حينما قالت: «ولكنك تستطيع حمايتها أفضل مني».

حينما انصرف مونتغومري بدأت تُحلل ما يحدث: «لصالح من يعمل مونتغومري؟»، «هل يعمل لصالح مؤسسة قانونية، أمّ عصابة أو مؤسسة قانونية في دولة أخرى؟»

***

«نعم سرقتُ حقيبة باڤو، أو بالأدق شاركتُ في سرقتها»، وبدأ أمين في تقديم اعتراف أسفل جورج واشنطن، قدّم دفاع عن نفسه، حضَّر له جيّدًا. يعلم أنّه لابد من مجيء هذا اليوم، ويروي قصّته لأحد.

كان وجهه جامدًا وعينيه جاحظتين، دافع بحماسة شديدة: «نعم سرقتها، لكنّي لم أكن لصًا يومًا ما، لقد سرقت أوروبا ثروات بلادي لمئات السنين، حتّى أثارها المدفونة تحت الأرض أخرجوها وزينوا بها متاحفهم وبيوت العائلات النبيلة، رأس نفرتيتي؛ بوابة عشتار، حجر رشيد، كانت السُفن تُغادر الإسكندرية مُحملة بالذهب والأثار والحبوب والقطن المصري طويل التيلة، ثم تأمروا علينا، فرقونا إلى شعوب، مع أننا نتكلم لغة واحدة ونؤمن بإله واحد، لا مَكان للرحمة في هذا العالم، سرقوا حتّى حلمنا بالوحدة، لكنّها ستحدث، أؤمن بهذا، ويجب أن يؤمن الغرب أنّ العرب قادمون تدريجيًّا من نافذة ضيقة منسيّة؛ لم يُغلقها الأمريكان والانجليز بالمؤامرات والقتلى العرب، لكننا لن نقتل أو نُدمر أو نتأمر كما فعلتم»، أراد أن يجعلها تشعر

بالذنب وكأن الإنسان في الغرب جزء من المؤامرة على العرب، وبدأ يظهر تأثير ذلك على وجه سارة.

لم تنطق، كانت تُحدّق في كلمات أمين، لا ترى جيّدًا لكنّها واعية، وجهها في حالة لا يُرثى لها، وندم أمين أنّه ورطها مَعه، وعلى فترات ترفع فنجان قهوة برازيلية وترتشف، لم تطلب طعامًا. كانا مُتقاربين حول الطاولة، السيّارات تمرّ قريبة جدًا من الزجاج وتضغط الشارع الملتوي والضيق. في الناحية المُقابلة يقف مركز العَمَليّات في الظلام؛ لأجله تم تعطيل نظام الإضاءة في أعمدة الشارع. عبارة عن شاحنّة صغيرة، على ظهرها صندوق بضائع، من الداخل غُرفة مُجهزة بجهاز لاسلكي، ومروحة، ونظارات ليلية، تعمل خلال نافذة في الواجهة؛ فوق كابينة القيادة، ونافذة أخرى داخل اعلان، في الجانب المُطل على الشارع، وراديو مُتصل بجهاز تسجيل وهوائي، ضُبط مؤشره على تَرَدّد مُحدد، ومن سَمَّاعته يفوح صوت أمين بوضوح، يسمعه رئيس الفريق ورفيقه.

كان «لاتسيو» كئيبًا هذه المرّة، الأضواء بائسة، الزبائن ينتشرون في الأرجاء كتشكيل عسكري، يُشتبه أنّهم رجال استخبارات مُتخفّيين، يوزعون المُراقبة بينهم بذكاء، بحيث لا تغيب طاولة أمين وسارة عن نظر أحدهم، لذا لم يُلاحظ أمين أنّه مُراقب. تُشاركهم العجوز ذات الشعر الأبيض والعينين الزرقاوين وحفيدها، أمامهما طبقي مكرونة، فالمطعم مُتخصص في تقديم المعجّنات الشهيّة. أحدهم يُراقب من خلال مرآة عملاقة في الحائط، والنادل لا يجد أيّ عمل يقوم به ويسند ظهره على الحائط. لأوّل مرّة يرى أمين هذا النادل، شعر أنّه مُطوّق، وضع يده فوق فخذه الأيمن فبرز المُسدس. أكمل وهو مُرتاب: «عمر الإنسان بالنسبة للكون ومضة سريعة، لن تجذب انتباه أحد، إلّا إذا أرد غير ذلك، وأنا أردتُ ترك عمل مُشرّف.....

أباح بكل شيء، لكنّه لم يبح بشيء واحد، لحساب منّ فعل ذلك. بينما كان يتكلم رَنَّ الهاتف، رفع النادل السَّمَّاعة ثم أعادها إلى مكانها دون أن ينطق بكلمة. أعاد أمين تقييم الوقائع، دوّى صوت طائرة.

لم يكن هناك مُتسع من الوقت، قالت سارة: «هيا إنّهم قادمون»، وقف أمين، يُفكّر، أخذت توسلت إليه، جرته من ثيابه، قالت وهي و اقفة: «أسرع»، تناول حقيبتها من فوق المنضدة، جذبتها من يده ورمتها بغيظ على الأرض، انتقمت من جهاز التنصت، أخذها من يدها واستدارا ناحية الباب.

انهار المشهد المُريب؛ الساكن والصامت حولهما، ظَهر رّجلين وأغلقا بجسديهما منفذ الهرب؛ باب المَطعم، وأخذا يُحدقان في أمين، أُحتجز العصفور داخل القفص. في الخارج سدَّت سيّارة الباب، رّجل يجلس في المَقعد الخلفي، يلف جسده كاملًا ناحية اليمين، بحيث يكون وجهه وباب السيّارة أمام باب المطعم الزجاجي مُباشرةً، من المُفترض أن يستقبل أمين بينما يدفعه رجلين من الخلف داخل السيّارة. أُغلق الشارع بمتاريس، كمين مُحكم.

فجأة؛ أطفئت الأنواروأطبق الظلام والصمت. سُمع دوي إطلاق ناروصراخ وزجاج يتهشم، كان الموت ضروريًّا.

**

في البيت؛ أسندت سارة ظهرها على باب الغرفة كصورة ملتصقة بحائط، الباب مغلق ولكنّ باب الأحزان مفتوح، الحزن القاتل يفترس جمجمتها كذئب يعبر من أقصى الجمجمة إلى أقصاها وهي تائهة كخطاب مُدون عليه عنوان خطأ. رأسها فوق ركبتيها، تُغمض عينيها، وتسيل الدموع على ضفتي وجهها. أتعس الحُبّ ليلتها، لم يتبقى إلّا الذكريات، وصلت طموحاتها الرومانسية السّماء، والآن عليها أن تعتني بقلبها، تسأل: «أليس من الأفضل أنّ أموت؟»، النافذة مفتوحة وهواء اللّيل يدخل، عداد الوقت يمضي

كسلحفاة عليها أثقال، فكّرت في أشياء كثيرة، ساذجة ومعقولة؛ الانتحار، تبني حيوان أليف أو طفل، كتابة رواية، البحث عن صديق أو حبيب. فجأة لمحت ورقة حمراء كالنار؛ فسفورية، تُرفرف كعلم وترتفع خلف زجاج النافذة، لم تكن ترى الأشياء بصورة طبيعية. قامت وأخرجت رأسها من الشباك حتّى كادت تهوي، إنها طائرة ورقية، فَرحت ثم قالت لنفسها بغضب: «أوهام.... أوهام.... أوهام....»، بحثت عن صاحب الطائرة الورقية، والّذي يُمسك بداية الخيط؛ خشبة رفيعة وصغيرة ملفوف حولها خيط كثير، الحُرّ منه يصل إلى الطائرة الورقية ويحبسها عن الهروب في السّماء، لم تتمكن من رؤية صاحب الطائرة، يحجبه سور البيت. ترددت، خافت، ربّما وهم، ينتظرها في الأسفل كمين، قارئ مخبول عَرف عنوانها. لم تكن تعلم مصير أمين: «هل هو حيٌّ يُرزق أمّ تمت تصفيته في السجن بدم بارد مثل إيميت تل[37]؟». كلّ ما تتذكره؛ أثناء الهَرج دفعتها يد أسفل المنضدة حتّى أنّ رأسها اصطدمت بقائم من قوائم المنضدة.

تذكرت حينما سار فوق ظلها في الحديقة، انفجرت باكية، بينما الطائرة الورقية تسرح في السّماء وذيلها يُرفرف.

بعدما جفت الدموع في عينيها، فتحت روايتها؛ «طائرة ورقية لطرد الأشباح»، لم يعد هناك من يقرأ لها، قرأت لنفسها:

»

*أمطار وعواصف، رعد وبرق، أتخيل وردة تعقد* أوراقها *حول الغصن كي لا تنجرف، وعلم على ظهر سفينة، أو أعلى مبنى رسمي، يحاول التشبث بساريته ويلتف حولها، وعاشقة تسجل كاميرا ذاكرتها اللحظة. أمّا أنا فكنت أجلس*

---

[37] فتى أسود، يبلغ من العمر 14 عامًا، دخل بقالة لِشراء الحلوى في دلتا الميسيسبي، مزح مع امرأة بيضاء كانت تُدير المحل، لاحقًا قُتل بوحشية مُفزعة لأجل ذلك، وتم القاء جثته في النهر.

*في المقعد الأمامي، أتمتع بالطريق المُظلم والغابة الفسيحة والمسّاحة التي تُزيل أطنان من مياه الأمطار عن الزجاج الأمامي، وقبل كل شيء أتلذذ بالسرعة الزائدة، وأعتقد أنّ الوقت مُناسب للخوف وقول «أحبك»، طلبتُ منه أن يهدأ السرعة، فابتسم إليّ، إنّه يمزح ويتفادى السيّارات بجنون، في كلّ مرة يرد على طلبي بابتسامة خفيفة. لاحظتُ أنّ قدمه تضغط الفرامل بكل قوّة، بينما تنطلق السيّارة بأقصى سرعة، سأظل أتذكر تلك اللحظة ما حييت، تحولت الغابة والمطر والطريق السريع إلى أشياء مُخيفة؛ بل مُخيفة جدًا. كانت النجاة مُستحيلة وهو يذهب بإرادته ناحية شجرة بلوط عملاقة على جانب الطريق، أمسك يدي، كانت الشجرة ناحيته، تقترب بسرعة، اختار استقبال الصدمة كاملة، ارتطمت السيّارة بالشجرة، اهتزت وارتفعت عن الأرض، طرنا إلى أعلى فأعادنا السقف مرةً أخرى، ما زلتُ أشعر بألم الصدمة، نظرتُ ناحيته بينما كانت السيّارة ترتد إلى الخلف، وجدتُ المقود في صدره، والدم يخرج من أماكن لا أقدر على احصائها، وانفاسه عالية ومسموعة، وجذع شجرة البلوط يُمزق جانب السيّارة، وتاجها يُظلل المَشهد. أرجوك لا تتركني، بلا فائدة حاولتُ فتح الباب، صرختُ: «أنقذوا حبيبي»، لا أتذكركم مكثتُ حتّى أخرجني المُسعف مُمزقة القلب ووحيدة.*

*وانتهت الحكاية بما يجب أنّ تنتهي به جميع الحكايات؛ موت البطل.*

»

***

**في الأيام التالية...**

**احتل مُحققون «لاتسيو»، ولم يُسمح لأحد بالدخول حتّى المالك. وحينما انتهى عملهم، أعادوا كلّ شيء كما كان قبل «ليلة الرَّصاص».**

رفضت الاستخبارات المركزية التعاون مع مكتب التحقيقات الفيدرالية ووزارة العدل، وكانت ترد: «بعض المعلومات الّتي تطلبونها غير متاح، والبعض سرِّيّ للغاية».

جُندت أقلام صحفية للربط بين صحافيّ منهاتن وما حدث في «لاتسيو» ونسج قصّص خيالية مشوقة؛ طُعم مُغري، فَخّ مُحكم، وفي النهاية الصحافيّ ووثائق مُزورة.

ورغم أنّ «لاتسيو» تمزّق بين الألسنة إلّا أنّ سمعة دموية لاحقت المطعم، وهجره الزبائن عدا سارة، الّتي كانت تجلس وحيدة حول «منضدة الموت». في النهاية؛ اضطر المالك لإغلاقه نهائيًا، وهو ما أحزن الزبونة الوحيدة.

قُتل «كيزستوف باڤو» في حادث سَّير، واعتبر تحقيق البوليس الحادث من تأليف القضاء والقدر.

***

ودارت الأرض حول الشمس مرّتين....

دخل رجل كثير الشحم مقر جريدة «ذا نوتلي صن»، ثائرًا، يلوح بيد وفي الأخرى عدد الجريدة الصادر اليوم، استقبلته سارة بهدوء، قال في غضب وهو يُشير ناحية إعلان أسفل الصفحة الرابعة: «حضرت إليكم منذ يومين ودفعت خمسون دولارًا مُقابل الإعلان عن متجري لبيع الساعات»، في ذات الوقت برزت نصف بطاقة بريدية عليها نصف رأس أبي الهول خلف الصفحة، أكمل الرجل كأنه لا شيء: «في النهاية تنشرون الإعلان مع تلك الساعة الأنيقة، لكنّ مع عنوان خطأ ورقم هاتف مطعم برازيلي»، قالت سارة الفَرحة: «سيدي كلّ شيء سيكون على ما يُرام، لا تقلق» وأدخلته مكتب فارغ.

جلس الرّجل على المكتب أمام سارة، وضع الجريدة فوق المكتب، رفعها ناحيته وفتحها ناحية سارة، وبداخلها البطاقة، بهدوء أخرجت سارة من حقيبتها نصف البطاقة الآخر، اِلتأمت القطعتين. بسرعة وخفة يد أخرج الرّجل عدسة ووضعها فوق خط رفيع أسفل أبي الهول، تحت العدسة ظهر الخط مبنيًا من جملة «I Love Sara» مُكررة، سألته سؤالًا واحدًا: «هل أمين حيّ؟»، رد بثقة: «نعم»، صمتت فقال الرجل: «وحقيبة الكتابة مَعه، لقد تكفّل بحمايتها وحمايتك».

أخذته إلى مَكتب رئيس التحرير الّذي وعده بنشر الإعلان صحيح في العدد القادم، ونشره مرة أخرى مجانًا كتعويض. كانت تُغني، أردت المشي مع الرّجل حتّى الباب وتوديعه، أمرها بالعودة إلى مَكتبها كيلا تجذب الانتباه، بعدما طلب لِقاء؛ بعد ساعة، تخرج إلى الشارع وستجد سيّارة أجرة، سيقول لها السائق: «سيّارة أجرة يا سيدتي»، فيجب أنّ ترد: «نعم أود الذهاب إلى شارع عيد النصر» (شارع غير موجود)، فسيرد عليها السائق: «هل هو في الفردوس؟». ابتسمت حينما قال لها السائق ذلك، فتحت الباب الخلفي ودخلت السيّارة.

أحضرها السائق إلى المكان المُحدد، في الموعد. أخبرها السيد تشارلز أنّ أمين ينعم بحياة في مَكان ما، بالطبع بعيدًا عن الأراضي الأمريكية. إذا أرادت العيش معه، ستأتي الآن، ولن يُسمح لها بالعودة إلى البيت، وإذا رفضت عليها نسيان الأمر وعدم الحديث عنه. و افقت بشرط توديع أبويها. طُلب منه خلع ملابسها كاملة وارتداء ملابس أخرى أحضرها معه، وأخذها بالسيّارة إلى المقبرة.

باتت ليلتها في شَقّة آمنة، استلمت جواز سفر مزور باحتراف يُثبت اسمها الجديد؛ «جاكلين أوليفر».

«لماذا؟»، أضافت: «أنا لستُ ممنوعة من مُغادرة البلاد».

«نعم، اسمك لا يوجد على قوائم الممنوعين من المُغادرة لأنها تحتاج إلى حكم قضائي، لكنّ هناك قائمة أخرى لا يعلم القانون عنها شيء، ببساطة سيقوم الموظف بعرقلتك لأيّ سبب حتّى تُغادر الطائرة.»

ظلت تطوف الغرفة وهي تُردد اسمها الجديد، وكلما تخيل عقلها طبطبة أقدام ظنت أنّها لهم، ثم غلبها النوم. في الصباح أخذتها سيّارة إلى مَطار نيويورك الدولي[38]، وهناك انضمت إلى فوج سياحي، وعلقت بطاقة الفوج في رقبتها. أعلن بوق الإذاعة الداخلية أنّ الرحلة أُجلّت، تلقائيًا قالت بصوت ضعيف: «إلى متى؟»، أُغلق البوق ولم يرد أحد عليها، ظنت أنّ سرها كُشف، تذكرت مونتغومري؛ الغرق، كادت أنّ تُجن، الناظر في وجهها يتأكد أنّها واقعة تحت ضغط جبار، استعد مُرافقها (الّذي لا تعرف بوجوده) إلى السيناريو الأسوأ، قامت لتسأل، اقترب وطلب منها أنّ تهدأ، عادت إلى مَقعدها، ظل قريبًا منها ومعه أدوات تغيير ملامح الوجه، وفي جيب سحري سرّيّ؛ جواز سفر احتياطي لجاكلين باسم جديد، تستخدمه لمُغادرة المَطار حال إلغاء العَمَليّة.

أخرجت دفترها وبدأت تكتب الحياة، تعجب مُرافقها، كيف تكتب هكذا وهي مُتوترة وخائفة!، لكنّ أعظم الكتابات تولد في أشدّ أوقات الكاتب ضيقًا، وساعة البُكاء تخرج أبلغ الكلمات.

كتبت:

»

***في صالة الانتظار، تتجلى الحياة المُرعبة بأطوارها المختلفة، أيّا ما كانت الساعة ثمة أناس يرحلون، يودعون، يُستقبلون، ثمة دموع وعناق مطول وابتسامة فرح أو سخرية من ألم، كلّ هذا يحدث في توازي مقصود. هذه هي***

---

[38] الآن يُدعى؛ مطار جون إف كيندي JFK.

*الحياة كلٌّ منا له دور؛ يؤديه دون زيادة أو نُقصان، وبرغم ذلك قِلَة أدركوا أنّ الحياة خَصْم لا يجب الاستخفاف بقوة عَصرته. وددت لو أكسب المزيد من الوقت لأسافر خلسة في عروق ودهاليز كلّ انسان في الصالة، لأرى من داخله كيف تبدو الحياة في الخارج؟، الحقيقة أنا خائفة وأتمنى على الوقت أنّ يهرول. في تلك اللحظة يقطعني بوق الاذاعة الداخلية معلنًا النداء الأخير على رحلتي، عليّ أنّ اتجه ناحية البوابة، وأترك خلفي التجربة الحاسمة التي تجريها الحياة على الناس. بدأتُ التقط صوت ضعيف لموسيقى هادئة، يبدو كانت معي منذ البداية، أنا سعيدة وخائفة، لا أعرف ماذا سأقولُ له، سأعانقه وذلك كفيل بدعمي ومحو خوفي، وإنّ اعترض؛ سأجُره من رقبته. الآن انتهى دوري هنا، وسأغلق الدفتر.*

»

سألها رجل البوليس: «أين جواز سفرك؟»، توقف قلبها. ردت بلسان مُضطرب: «هل هناك أمر توقيف؟»، دقق رّجل البوليس فيها وقال: «دعيني أفحص جواز سفرك لأعرف».

أخذت تسمح إطار نظارتها والتي ترتديها لأوّل مرّة، لم تثق في جواز سفرها المُزيّف. تحركت مع رّجل البوليس في صمت. على بعد خطوات؛ مدّ مُر افقها يده داخل الحقيبة وقال بصوت مُرتفع: «جاكلين، هيا النداء الأخير، أسرعي قبل أنّ تُغلق البوابة»، لم تعتاد على أنّ يُناديها أحد «جاكلين»، لذا لم تلتفت ناحية النِداء. اضطر المُر افق إلى الهَرولة للتدخل في وقائع اللحظات الحاسمة، أمسك جاكلين من يدها وهو يقول في غضب: «أنتِ مُملة وبطيئة»، توقفت والتيه يملأ عينيّها وهي تُحدق في كلاهما. قال رّجل البوليس بحزم وفظاظة: «أين جواز السفر؟». استدار المُر افق ناحية رّجل البوليس وأخرج بهدوء جواز سفر جاكلين الاحتياطي باسم جديد، تفحصه رّجل البوليس وقال: «و أنت أين جواز سفرك؟»

أصبح جوازي السفر في يد رّجل البوليس.

**

ركبتْ سارة طائرة تابعة لشركة طيران الجمهورية العربية المُتّحدة، كانت مصر وسوريا قد اتحدتا منذ عام تقريبًا، تحديدًا في الثاني والعشرون من فبراير/شباط من عام 1958، وهو الاتّحاد الّذي تآمروا عليه وبعثروه.

***

**تمت بفضل من اللَّه في أبريل/نيسان 2020**

## أعواد ثِقَاب مُشتَعِلَة

يؤمنون جميعًا أنّ الاستخبارات ما هي إلّا لعبة عقول. ماذا يُمكن أنّ يجمع عالِم فيزياء بولنديّ وتلميذه العربيّ وكاتبة روايات رومانسيّة أَمريكيّة وأربعة أجهزة استخبارات عالَميّة ؟

حقيبة داخلها مَصير العالم.

الرقم الدولي المعياري (ردمك): 978-603-03-6074-1